IJSSP

المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)

15 – نيسان – 2021 م

www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[آداب المتعلّم من المنظور التربوي الإسلامي]

إعداد الباحثان:

[الدكتور حاتم محاميد - المحاضر في مجال التربية والتعليم، كليّة سخنين لإعداد المعلّمين]

[الدكتور يونس أبو الهيجاء - المحاضر في مجال التربية والتعليم، كليّة سخنين لإعداد المعلّمين]

ملخص الدراسة:

يتمحور هذا البحث حول الآراء التربوية لبدر الدين بن جماعة (ت 733هـ/1332م)، والتي استعرض فيها مفهوم آداب المتعلّم (طالب العلم)، والتي قام بتوثيقها في مؤلّفه "تذكرة السّامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم". يتركز البحث بشكلّ خاصّ بالمتعلّم وبآدابه في نفسه ومع أستاذه (الشيخ/المعلّم) وفي درسه، وآدابه مع الكتب وفي سُكنى المدارس. يهدف البحث الى إبراز مدى اهتمام ابن جماعة بآداب المتعلم، والتي تتمحور حول صفات المتعلم الأخلاقيّة والدينيّة والنفسيّة والاجتماعيّة والعلميّة، شروطها وآدابها. كما يُظهر البحث مدى اهتمام وإدراك ابن جماعة بالجوانب الأخلاقيّة والسلوكيّة للمتعلّم، وغرس الفضائل الروحيّة والإنسانيّة في نفوس المتعلّمين، في سبيل تنميتها وتعزيزها. يحاول البحث الإجابة على السؤال الهامّ والمركزيّ: ما أبرز آداب المتعلّم عند بدر الدين بن جماعة ومفكرين آخرين في ظلّ التربية الإسلامية؟ وما هي الشروط الواجب اتّخاذها لتحقيق أقصى ما يمكن من الفائدة ليبلغ المتعلّم مبتغاه العلميّ والتربويّ المنشودين؟

كلمات مفتاحية: إبن جماعة، آداب المُتعلّم، العالِم، الحلقات الدراسيّة، سُكنى المدارس، العلوم الدينيّة.

[The Learner's Manners from the Islamic Pedagogical Perspective]

[Dr. Hatim Mahamid & Dr. Younis Abu Al-Haija]

Abstract

This study deals with the educational views of Badr al-Dīn Ibn Jamāʿa (d. 733 AH/1332 AD) about the learners' morals concept in which he documented in his documentary “Tadhkirat al-Sāmiʿ wal-Mutakallim fi Adab al-ʿĀlim wal-Mutaʿallim”. This research focuses in the learner, his behaviors towards himself, his teacher, his lesson, with the books and his school residential. The research aims to highlight Ibn Jamaa's concern in the learner's manners, centered on the ethical, religious, psychological, social and educational characteristics. This concern indicates his realization to the importance of the learner's ethical behavioral aspects towards the learner himself and towards others, to avoid vices and to build humanistic aspects. Therefore, this research tries to answer the main question: What is the most prominent manners of Islamic learners according to Badr al-Din Ibn Jama'a and other scholars in light of Islamic education? What are the conditions that must be taken to achieve the maximum possible benefit for the learners and his desired scientific and educational goals?

Key Words: Ibn Jamāʿa, Iearner, Educational manners, Scholastic circles, Schools residential, Religious sciences.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)
15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

مقدمة الدراسة:

في عهد بدر الدين إبن جماعة (ت 733هـ/1332م) ترسّخت الحياة الثقافيّة والتربوية الدينيّة بالاعتماد على المؤسّسات التعليمية المختلفة، إضافة إلى المسجد والجامع، ومن أهمّها مؤسّسة المدرسة. فقد بلغ إنشاء المدارس والمساجد والمؤسّسات الدينية المختلفة أوجها في العصر المملوكي الأول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي اعتمدت على الأوقاف الخيرية التي خصّصها الحُكّام والأغنياء من التّجار، بهدف الصدقات ولخدمة الدين والتعليم الديني، وكذلك التنافس على إنشاء المساجد كدور للعبادة، وكذلك كمؤسسات علميّة أيضاً. فهذه المؤسّسات جميعها، شكّلت القاعدة للنشاطات الثقافية والتعليميّة في المدن المختلفة من بلدان العالم الإسلامي، كما هو في نشر الدين وعلومه، والتربية الدينية على اختلاف مناهجها وتنوّعها. هذا مما جعل الحركة العلمية والثقافية نشطة في هذه المؤسّسات، وتتمحور حول مُركّبين رئيسيين: العالم (الشيخ/ المعلّم) والمُتعلّم، أي الطالب.

كان انتشار المدارس والمؤسّسات الثقافية والدينية في عهد إبن جماعة، في رواج كبير. وقد سادت هذه الفترة أجواء من التنافس بين أتباع المذاهب الأربعة للتأثير على الحياة الدينية والثقافية بين الناس، واستمر هذا الصراع والتنافس حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإدخال الإصلاحات القضائيّة بالاعتراف بالمذاهب الأربعة والتعامل معها بالمساواة، وعيّن أربعة قضاة (قاضي القضاة) في مصر عام 1263م، وفي بلاد الشام عام 1265 (Rapoport, 2003; Nielsen, 1984; Berkey, 2009). وهكذا كانت المدارس مخصّصة لتدريس الفقه وموزّعة على المذاهب حسب سياسة الواقف المتبرّع لها. وقد قامت المدارس بدورها الديني من حيث التربية والتعليم وتأهيل ذوي المناصب الدينية والديوانية على حدّ سواء. وقد تفرّعت المؤسّسات التعليمية هذه، إضافة إلى المدرسة، كمؤسّسة "دار الحديث" لتعليم الحديث وكذلك "دار القرآن" التي تخصّصت بتعليم القرآن وحفظه (إبن طولون ج1، 1980). كما استمرت المساجد في خدمة التعليم والثقافة الدينية، بالإضافة إلى كونها أماكن للعبادة والنشاطات الدينية (Mahamid, 2009; Erzini & Vernoit, 2013). واستمرت مؤسّسة الكُتّاب في انتشارها لتعليم الصّبيان في المراحل الأولى لتعليم القراءة والكتابة، بالإضافة إلى التربية الدينية ومبادئ الأخلاق والآداب والسلوكيات مع قراءة القرآن وحفظه، بالإضافة إلى تعليم أسس الحساب (أمين، ج3 ،1990؛ رمضان، 1992؛ رزق، ج1-2، 1997؛ عسيري، 1987؛ Makdisi, 1991; Makdisi, 1981; Chamberlain, 1994; Berkey, 1992: 130-134; Mahamid, 2013: 130-192).

هذه الأوضاع التربويّة والثقافية الإسلامية في العصور الوسطى المتأخّرة، حدّدت شروط الأوقاف قواعد التعامُل، العلاقة والتفاعُل بين أركان العمليّة التعليميّة الثلاثة، وهي: الواقف (صاحب الوقف)، العالم (الشيخ/ المعلّم) وبين المتعلّم (الطالب) (Mahamid, 2013: 93, 101-112؛ إبن كثير، ج13، 1988: 124؛ النُّعَيمي، ج2، 1988: 292). ففي هذه الأجواء، برز ابن جماعة مُرشداً ومنظّراً لهذه العمليّة التعليمية وفضلها وآدابها وتفاعلها بين العالِم وبين المُتعلّم. فيُلاحظ بأخذ إبن جماعة وتوثيقه لهذه التفاعلية والآداب التربويّة ممن سبقه من العلماء ورجال الفكر التربوي الإسلامي، مثل الغزالي والزّرنوجي والسّمعاني وغيرهم، وصاغها بأفكاره في كتاب **"تذكرة السامع والمُتكلّم في أدب العالم والمُتعلّم"**، لتكون قواعد ومبادئ لمن جاء بعده من المفكرين، أمثال إبن خلدون والعَلمَوي وغيرهم. وهكذا وضع إبن جماعة منظوره في وجوب اهتمام المتعلّم أثناء طلبه للعلم بالنواحي الصحيّة والنفسيّة والتحلّي بالأخلاق الفاضلة نحو ربّه ونفسه، مما يؤثر تأثيراً ايجابياً على سيرورة العلم والتعلّم. وقد اهتمّ ابن جماعة ببث الأخلاق الكريمة وغرس الفضائل في نفوس المتعلّمين وتعويدهم على التمسّك بالفضيلة وتجنّب الرذيلة والتفكير في الجوانب الروحيّة والانسانيّة، والتفرّغ للدراسة. ويذكر إبن عبد البرّ

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)
15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

قولاً عن الخليفة الأمويّ عمر بن عبد العزيز (ت 720م)، قوله: "إن استطعتَ فكُن عالِماً، فإن لم تستطع فكن متعلّماً، وإن لم تستطع فأحبّهم، وإن لم تستطع فلا تبغضهم..." (ابن عبد البِرّ، 1996: 33، 34).

مشكلة الدراسة وأسئلتها

لقد حظي التكوين الأخلاقي للمتعلّم (طالب العِلم)، إلى جانب التكوين العلمي اهتماماً بالغ الأثر في تحقيق رسالة الإنسان في هذه الحياة، وفقاً للمعايير الإسلامية والغايات التي خلقه الله عزّ وجل من أجلها. ويعتبر الإهتمام بآداب المتعلم من أهمّ الموضوعات التي اهتمّ بها علماء ومفكرو الإسلام، حيث أدركوا أهمية العنصر الأخلاقي والآداب في بناء الحضارات والأمم. وعلى ضوء ذلك، تتمثل مشكلة الدراسة الحالية في إبراز آداب المتعلّم عند بدر الدين بن جماعة من خلال كتابه "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم"، مقارنة مع ما أورده مفكرو الإسلام في هذا السياق. لذا تسعى هذه الدراسة الى إبراز آداب المتعلّم من خلال الإجابة عن السؤال: ما أبرز آداب المتعلّم عند بدر الدين بن جماعة ومفكرين آخرين في ظلّ التربية الإسلامية؟ وما هي الشروط الواجب اتّخاذها لتحقيق أقصى ما يمكن من الفائدة ليبلغ مبتغاه العلميّ والتربويّ المنشودين؟

أهمية الدراسة

تبرز أهمية الدراسة الحاليّة في التعرّف على الفكر التربوي الذي قدّمه إبن جماعة ومجموعة من الفلاسفة والعلماء المسلمين حول موضوع آداب المتعلّم في المجالات الآتية: آدابه نحو ربّه ونفسه؛ آدابه مع شيخه (المعلّم)؛ آدابه في درسه؛ آدابه مع الكتب؛ آدابه في سُكنى المدارس. كما وتبرز أهميّة الدراسة في التعرّف على مدى اهتمام المفكرين المسلمين ببثّ الأخلاق الكريمة وغرس الفضائل في نفوس المتعلّمين وحثّهم على التمسُّك بالفضيلة وتجنُّب الرذيلة والتفكير في الجوانب الروحيّة والانسانيّة، الأمر الذي يؤثر تأثيراً ايجابياً على سيرورة العلم والتعلّم.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى الكشف عن آداب المتعلّم من خلال إنتاجات مفكّري الإسلام وترابطها مع فكر بدر الدين بن جماعة من خلال كتابه "تذكرة السامع والمتكلم ...". كما وتهدف الدراسة إلى التعرّف على الآداب التربويّة التي قام إبن جماعة بتوثيقها ممّن كان قبله، أمثال الزّرنوجي والغزالي وغيرهم من المفكّرين، لتكون قواعد ومبادئ لمن جاء بعده، أمثال إبن خلدون والعَلمَوي وآخرين. وتهدف الدراسة أيضا إلى الكشف عن منظور إبن جماعة في وجوب اهتمام المتعلّم أثناء طلبه للعلم بالنّواحي الصحيّة والنفسيّة والتحلّي بالأخلاق الفاضلة.

حدود الدراسة

تتركّز حدود الدراسة حول آداب المتعلّم عند بدر الدين بن جماعة من خلال كتابه "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم"، بالترابط والمقارنة مع آراء آخرين من العلماء التربويين في الإسلام.

منهج الدراسة

إستخدم الباحثان المنهج الوصفي التحليلي والذي يعتمد بالذات على كتاب ابن جماعة "تذكرة السامع والمتكلم ..." ومصادر أوليّة تاريخية تربوية في الإسلام في العصور الوسطى لمجموعة من العلماء والمفكرين لمناقشة وتحليل القضايا التي وردت في الدراسة. تتحدّد منهجية الدراسة في ضوء طبيعة الموضوع والأهداف التي يتطلع الباحثان إلى تحقيقها من وراء إجراء موضوع الدراسة الحالية وأهدافها. كما واعتمدت الدراسة على أبحاث ودراسات حديثة في هذا المجال.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)
15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

آداب المتعلّم عند إبن جماعة

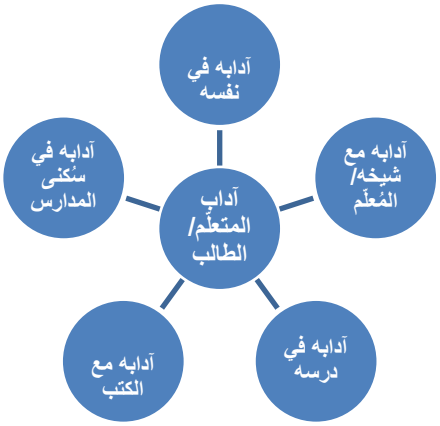

لقد أثرت الظروف السياسية والدينيّة والاجتماعية على ترسيخ التعليم والثقافة الدينية بتنوّع مواضيعها ومؤسّساتها ونظامها. فقد عمل إبن جماعة على تقسيم آداب المتعلّم ومسلكه أثناء نشاطه التعليمي الى خمسة أنواع. وبهدف توضيح وإبراز تلك الآداب، فقد أشار إبن جماعة الى أنّ المتعلّم هو الذي حقق درجة من الرّشد والوعي الجسدي والفكري والأخلاقي وقرّر بذاته اختيار طريق العلم والسّعي إليه. وهكذا، يتوجّب على المتعلّم السلوك واتّباع آداب معيّنة حتى يكون متكاملاً بآدابه وسلوكيّاته في نفسه ومع غيره، آدابه مع معلّمه/ شيخِهِ، آدابه في درسِهِ، آدابه مع الكُتُب وآدابه في سُكنى المدارس، وغيرها من السلوكيات المتعلّقة في العمليّة التعليميّة (إبن جماعة، 2012: 85-147؛ أبو حامد الغزالي، 2010: 47-69؛ العَلْمَوي، 2004: 53-79). من هنا نلاحظ التشابه بين ما أورده أبو حامد الغزالي (ت 1111) حول آداب المُتعلّم (الطالب) وبين ما يحدّده إبن جماعة في هذا السياق، حيث ذكر الغزالي أنّ آداب المُتعلّم ووظائفه كثيرة، ولكنّه حدّدها بعشر نقاط هامّة (أبو حامد الغزالي، 2005: 60-67).

آداب المُتعلّم في نفسه

يعتبر إبن جماعة أولاً تطهير القلب من كل غشّ ودنس وغلّ وحسد وسوء عقيدة وخلق، من أهم العوامل في آداب المتعلّم مع نفسه. لقد أوصى المتعلّم بعدم التقصير في حقّ نفسه والإهتمام بالنّواحي الصحيّة والنفسيّة من أجل نجاح عمليّة العلم والتعلّم. كما أكّد أهميّة تحلّي المتعلّم بالأخلاق الفاضلة نحو نفسه، الأمر الذي من شأنه أن يعزّز قدرته على طلب العلم. كما هو الحال لدى المعلّم، يشير ابن جماعة الى وجوب توفّر شروط ذاتية عند المتعلّم منبثقة من نفسه ومدفوعة برغبته وإرادته. فيوصي إبن جماعة المتعلّم أوّلاً بتطهير القلب من خبيث الصفات ليصلح لقبول العلم، فالقلب بغير التطهر لا يصلح لتلقي العلم وحفظه. يقول ابن جماعة: "كما لا تصحّ الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث؛ فكذلك لا يصحّ العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبيث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها". حيث يشبّه إبن جماعة ذلك بطيبة القلب التي تمنح البركة للعلم وتنمّيه كمثل الأرض الطيّبة التي تُنمّي زرعها إذا طُيّبت (إبن جماعة، 2012: 86؛ العَلْمَوي، 2004: 58-63). الغزالي، من جهته، يذكر أنّ الوظيفة الأولى للمتعلّم هي طهارة النفس، فيقول في هذا المعنى: "تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب وصلاة السرّ وقُربة الباطن إلى الله، وكما لا تصحّ الصلاة... إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث..." (أبو حامد الغزالي، 2005: 60-61). كذلك، إبن قُدامة المقدسي (ت 742هـ/ 1341م) يتفق مع من سبقه من العلماء والمفكرين المسلمين في هذا الشرط من آداب المتعلّم بقوله: "أمّا المتعلّم، فينبغي له تقديم طهارة النفس عن

رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، إذ العِلمُ عبادة القلب ... وينبغي له قطع العلائق الشاغلة..." (المقدسي، 1997: 25-26).

كما ويوصي إبن جماعة في أن يأخذ المُتعلّم نفسه بالورع في جميع شأنه. ويقصد بذلك، اجتناب المحارم ومجاهدة النفس عمّا حرّمه الله أو ما فيه شُبهٌ، سموّاً بالنفس وصيانةً للعمل. وحتى يفلح المتعلم في ذلك فعليه تدريب نفسه على معالي الأمور التي فيها كمال النفس. فيشدّد ابن جماعة على واجب المُتعلّم "أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه، ويتحرّى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله؛ ليستنير قلبه ويصلُح لقبول العلم" (إبن جماعة، 2012: 91).

أمّا حُسن النيّة في طلب العلم فتعتبر من الشروط الهامّة التي ينبغي توفّرها عند المتعلّم، وهي أساسيّة وغاية أولى لكلّ عمل صالح في التعلّم والعلم معاً. ويتوجّب على المتعلّم كما ذكر ابن جماعة: "أن يقصد به أي العلم وجه الله تعالى، والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم لقائه" (إبن جماعة، 2012: 86-87). وفي هذا السياق يركّز ابن قُدامة المقدسي على أهميّة النيّة والإخلاص والطاعة والصدق في العمل، ويقول في هذا المعنى: "العمل بغير نيّة عناء، والنيّة بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء" (المقدسي، 1997: 422-433). أمّا الفقيه الحنفيّ برهان الإسلام الزّرنوجي من علماء القرن الثاني عشر (ت 591هـ/1195م)، فيشدّد على أهميّة النيّة في تعلُّم العِلم، لكونها الأصل في جميع الأفعال، فيقول في هذا المجال: "... وينبغي أن ينوي المُتعلّم بطلب العِلم رضاءَ الله والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه، وعن سائر الجُهّال، وإحياء الدين ... ولا يصحّ الزّهد والتّقوى مع الجهل". كما ويضيف على أنّ طالب العلم يجب أن يتحلّى بالأخلاق الحميدة من التواضع والعِفّة، وأن لا يُذلّ نفسه بالطمع من أجل التكبُّر وغرض من الدنيا (الزُّرنوجي، 1981: 66-70).

وهكذا، يُلاحظ مدى التوافق في رأي إبن جماعة مع غيره من العلماء في الهدف الرئيسي للمتعلّم في طلبه للعِلم، حيث ذكر الغزالي في آداب المتعلّم: "أن لا يتكبّر على العِلْم ولا يتأمّر على مُعلّم ... وينبغي أن يتواضع لمعلّمه ويطلب الثواب والشّرف بخدمته" (أبو حامد الغزالي، 2005: 62). فالنيّة والإخلاص والعمل والطاعة تترابط جميعها وتتكامل مكوّنة شروطاً للفضيلة الخلقية عند طالب العلم. حيث يتّفق العلماء على أنّ التعليم والتعلّم بالعلوم الدينيّة هي بمثابة عبادة، حيث ذكر إبن جماعة الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة حول فضائل العلم وأهله من علماء ومتعلّمين (ابن جماعة، 2012: 35-46؛ أبو حامد الغزالي، 2005: 15-17؛ المقدسي، 1997: 15-23). في هذا السياق، نلاحظ أنّ الغزالي يقسّم العلوم إلى قسمين رئيسيين: العلوم الشّرعيّة التي تخدم أمور الدين، والقسم الآخر هي العلوم الغير شرعيّة، منها الدنيويّة المرتبطة بمصالح الدنيا، والعلوم الفلسفية، حيث قسّمها إلى علوم ممدوحة وعلوم مذمومة والتي يجب تجنّبها ونبذها (أبو حامد الغزالي، 2005: 21-25؛ المقدسي، 1997: 23-24). وقد أورد الزّرنوجي (1981، 61) بدوره أقوالاً من الشعر لدعم آرائه في شرف العِلم الديني وأهميّته، لكونه وسيلة إلى البِرّ والتّقوى، والذي من خلاله يستحقّ الإنسان المُتعلّم نيل الكرامة عند الله، والسعادة الأبديّة، فيستشهد بالقول:

تَعَلّم فإنّ العِلمَ زينٌ لأهلِهِ ... وفضلٌ وعنوانٌ لكلّ محامدِ
وكُنْ مُستفيداً كلّ يومٍ زيادةً ... من العِلْم واسْبَحْ في بُحورِ الفوائدِ
تفقّهْ فإنّ الفِقْهَ أفضلُ قائدٍ ... إلى البِرّ والتّقْوى وأعدَلُ قاصِدِ
هو العِلْمُ الهادي إلى سُنَنِ الهُدى ... هو الحِصنُ يُنجي من جميعِ الشّدائدِ
فإنّ فقيهاً واحداً مُتَورّعاً ... أشدُّ على الشّيطانِ من ألفِ عابدِ

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)
15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

يؤكد ابن جماعة على أن يستغلّ طالب العلم وقته في التفرّغ لكسب العلم **بأن يبادر شبابه وأوقات عمره الى التحصيل**. لذا على طالب العلم أن يتحلّي بالصبر والقناعة في مكاسب الدنيا، كي لا يشغل قلبه شاغل في اكتساب العلم. وحسب منظور إبن جماعة، فإنّ مرحلة الصّبا والشباب هي أفضل مرحلة لطلب العلم وتحصيله، لان تأجيل العلم يسبّب ضرراً للمتعلّم وقد قال في ذلك: "فإنّ كلّ ساعة تمضي من عمره لا بديل لها، ولا عوض عنها" (ابن جماعة، 2012: 87). فالانقطاع الى طلب العلم، والانصراف عن مشاغل الدّنيا، في مرحلة الطلب أمر ضروري ومطلب أساسي للنجاح وتحصيل العلم ولن يتحقق هذا الهدف الا بالتفرّغ التامّ والبعد عن كل ما يصرفه او يشغله، وأن يغتنم الوقت دون إهمال أو تأجيل.

والقول **المشهور في الثقافة العربية بين العامّة والمتعلّمين، القائل: "العِلْمُ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ في الحَجَرِ"، يؤكّد على أهميّة تحصيل العلوم واغتنامه في المراحل المبكرة، وذلك قبل فوات الأوان والدخول بمرحلة الكبر والهرم، حيث يعسُر حينها على المتعلّم اكتساب العلم. ويشدّد إبن عبد البرّ في حديثه حول فضل التعلّم في الصّغر والحضّ عليه مُستشهداً بأمثلة من الحضارة الإسلامية من أقوال وأشعار، ومنها على سبيل المثال أبيات من الشعر لعبد الله بن نفطَوَيْه يقول فيها (إبن عبد البرّ، 1996: 85-88):**

أَرَانِيَ أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرِ وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصِّغَرْ
وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصِّبَا وَمَا الْحِلْمُ إِلَّا بِالتَّحَلُّمِ فِي الْكِبَرْ
وَلَوْ فُلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِي الصِّبَا لَأُلْفِيَ فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرْ
وما العِلْمُ بعد الشّيْب إلا تعسّفٌ إذا كَلَّ قلبُ المَرءِ والسّمعُ والبَصَرْ

أمّا مسألة القناعة والرضا والصبر فإنها عوامل هامّة عند إبن جماعة بأن يقنع المُتعلّم من القوت بما تيسّر وإن كان يسيراً. فيرى أهميّة ذلك في أنّ طالب العِلم ينبغي أن يخفّف من مطالب الحياة وعدم السّير خلف مشاغلها ومظاهرها، وأن يرضى باليسير ما هو ضروري منها، وأن يصبر على ضيق العيش. وهذا المطلب يُعدّ من علامات القناعة والاكتفاء باليسير من الدنيا، والصبر على الفقر في سبيل تحصيل العلم. فيقول ابن جماعة في ذلك: "أن يقنع (الطالب) من القوت بما تيسّر وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما ستر مثله وان كان خلقاً؛ فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، وبجمع شمل القلب عن مفترقات الآمال تتفجّر منه ينابيع الحِكَم". كما يشير ابن جماعة هنا الى أهميّة الانصراف عن مشاغل الدنيا والقناعة منها بالضروري. بحيث يوصي طالب العلم بالقناعة، والتزهّد في الحياة، لأنّ الانشغال بمفاتن الدنيا يعيق نجاح طالب العِلم. ويستشهد إبن جماعة من أقوال أئمة المذاهب، كأبي حنيفة النّعمان ومالك بن أنس والشافعي كأمثلة ممن كانت هذه الصفات من أحوالهم، وبلغوا من العلم أعلى الدرجات (إبن جماعة، 2012: 88). كما يذكر إبن قُدامة المقدسي حول الزّهد وأهميّته قائلاً: "واعلم أنّه ليس من الزّهد ترك المال، وبذله على سبيل السّخاء والقوّة، واستمالة القلوب، وإنّما الزّهد أن يترك الدّنيا للعِلم بحقارتها بالنّسبة إلى نفاسة الآخرة" (المقدسي، 1997: 382-389).

توزيع الوقت عند الطالب في عمليات المراجعة والمطالعة، يقسّمها إبن جماعة إلى أوقات الليل والنهار حتى يغتنم طالب العِلم ما بقي من عمره. فيركّز بذلك في دقائق الأمور حتى أنّه يوصي المتعلّم بأهميّة تقسيم أوقات الدراسة أثناء النّهار وملاءمتها لتحقيق الأهداف القصوى لكسب العلم وملكاته، وذكر أجود أوقات الحفظ، واغتنام جميع الأوقات لانجاز وتحصيل الأفضل. فيحدّد إبن جماعة أفضل الأوقات لتسهيل التعلّم على المتعلّم ويشير قائلاً: "أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل" (إبن جماعة، 2012: 89). وهكذا نلاحظ أنّ ابن جماعة يضع للمتعلم برنامجا موزّعا، بما يتناسب مع

الهدف من الدراسة والعمليّة التعليمية في كلّ وقت خلال اليوم، الأمر الذي يظهر مدى تجربته والخبرة الشخصيّة في ذلك طوال سنين حياته في كسب العلم. كما ويؤكّد الزّرنوجي على أهميّة أوقات النهار للدراسة والمواظبة لملاءمة اكتساب العلم للطالب، فيقول: "ولا بدّ لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أوّل الليل وآخره، فإنّ ما بين العِشائيْن ووقت السحر وقتٌ مبارك" (الزّرنوجي، 1981: 90، 117).

ومن أعظم الأسباب المُعينة على الاشتغال، والفهم وعدم المِلال، فيشير إبن جماعة إلى وصايا هامّة يوجّهها إلى المتعلّم. فمن أهمّ الوصايا العمليّة التي تساعد على التحصيل العلمي، بنظر ابن جماعة، الإقلال من الطعام، وأكل القدر اليسير من الحلال. ويؤكد ذلك بقوله: "أن كثرة الطعام جالبة لكثرة الشّرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواسّ وكسل الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية، والتعرّض لخطر الأسقام البدنية". لذا فقد حثّ إبن جماعة والزّرنوجي المتعلّم على الاعتدال في تناول الطعام والابتعاد عن كثرة الأكل وملء المعدة بالطعام، ممّا يتسبب في حالة من الكسل والاسترخاء والشعور برغبة شديدة في النّوم (إبن جماعة، 2012: 90؛ الزّرنوجي، 1981: 88-98).

كما ويُظهر إبن جماعة براعته كالطبيب الماهر في تحديد سلوكيّات الأكل والطعام وأنواعه لطالب العلم، بأن يقلّل من استخدام المطاعم التي تسبّب البلادة وضعف الحواس. فيدعو ابن جماعة المُتعلّم أن يقلّل من استعمال الأطعمة التي هي من أسباب البلادة والركود والخمول العقلي، وضعف الحواسّ، كالتفّاح الحامض والفول وشرب الخلّ، ويوصي بالأطعمة المسبّبة لجودة الذهن، كمضغ اللبان والمُصْطَكى، وأكل الزبيب وشرب ماء الورد. فيقول ابن جماعة في هذا الأمر: "ينبغي أن يستعملَ (المتعلّم) ما جعله الله سبباً لجودة الذهن؛ كمضغ اللبان والمُصْطَكى على حسب العادة، وأكل الزّبيب بُكرةً والجُلاّب، ونحو ذلك..." (إبن جماعة، 2012: 92؛ إبن طولون، 1998). يمكننا أن نستنتج من ذلك بأن العلماء قد أدركوا بغير شكّ أن لنوعيّة الغذاء والشراب آثاراً هامّة على سير النمو العقلي والحسّي للمتعلّم وعلى تعلّمه بشكل عام. فمنذ أواخر العصر المملوكي اشتدّ الجدل والخلاف بين العُلماء على شُرب القهوة إن كان ذلك حلالاً أم حراماً، وذلك بعد انتشار استعماله، فصدرت الفتاوى الكثيرة بذلك. حيث حَكمَ العلماء المُقرّبون للصوفيّة والزهّاد بحِلّها، وبأنّ استعمال القهوة لا يناقض الشرع، بل رأوا بالقهوة وسيلة تساعد على الحفاظ على يقظة الحواسّ عند الدّارسين وصحوتهم في التعليم الديني وإحياء الذكر والمدائح والمناسبات الدينية (Mahamid & Nissim, 2018).

يدعو إبن جماعة المُتعلّم على أن يقلّل من نومه، ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، فيقول في هذا السياق: "ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمانِ ساعاتٍ وهو ثُلُثُ الزمانِ" (إبن جماعة، 2012: 92). فهو يوجّه المتعلّم صوب الشروط البدنيّة التي ينبغي أن تتوفر كي يبلغ مراده بأقصى ما يمكن من النتائج الحسنة. فعلى المتعلّم أن ينام ثلث اليوم فقط، وأن يعطي جسمه حقّه لا أكثر وعليه أن يحذر من كثرة النّوم بغير ضرورة، لما في ذلك من ضياع الوقت، وما قد ينتج عنه من تراخٍ وكسل، والقدر المستحق من النوم – هو ما يدفع عن الانسان الارهاق والتعب، فينام المتعلّم بقدر ما يزيل عنه إجهاد بدنه وذهنه.

يبيّن ابن جماعة براعته وحكمته في الإرشاد والوعظ في سلوكيّات الطالب، التي من شأنها بلورة شخصيّته في هذه المرحلة من حياته الدراسية حتى يتمكن المتعلّم من اختيار الرفيق والشريك الملائم أخلاقياً وتعليمياً، والابتعاد عن رفيق السوء، وفهم ما يفيده وما يضرّه من المعاشرة والصحبة مع الأقران. فيقول ابن جماعة: "والذي ينبغي لطالب العلم: أن لا يخالط إلا من يُفيدُهُ أو يستفيدُ منهُ... فإن شرَعَ أو تعرّضَ لصُحبةِ من يضيع عمرُهُ معهُ ولا يُفيده ولا يستفيدُ منهُ ولا يُعينهُ على ما هو بصددهِ: فليتلطف في قطعِ عِشرتهِ في أوّلِ الأمرِ قبل تمكّنِها" (إبن جماعة، 2012: 94). بذلك، يتوجّب على المتعلّم أن لا يخالط إلا من يُفيده أو يستفيد منه. يُستدلّ من ذلك

بأنّ ابن جماعة يوصي طالب العلم ضرورة اختيار الصديق الصالح، التقيّ، الزكيّ، كثير الخير للانتفاع به. فالصديق الصالح والفاضل يساعد المتعلّم على اكتساب العادات الحميدة والفضائل وعلى الاقتداء بالصالحين. في هذا السياق، يؤكّد الزّرنوجي أيضاً على هذه الموعظة والارشادات السلوكية، التي بدورها تسهم في المسيرة التعليمية للمتعلّم ومنهج حياته وسلوكيّاته، فيقول: "وأمّا اختيار الشريك، فينبغي أن يختار (المتعلّم) المجِدَّ والورعَ وصاحبَ الطّبع المستقيم المتَفهّم، ويفرّ من الكسلان والمعطّل والمكثار (أي كثير الكلام) والمفسد والفتّان" (الزّرنوجي، 1981: 76).

آداب المتعلّم مع شيخِه (المعلّم)

يشير ابن جماعة والعديد من المفكرين المسلمين الى وجود إرتباط وثيق بين نوع العلاقة القائمة بين المتعلّم وأستاذه وبين درجة إستفادة المتعلّم من تحصيله الدراسي واستمراريته في طلب العلم. فالعالم/ المعلّم يُعتبر عاملاً أساسيّاً في نجاح عملية التعليم وأهمّ عناصرها، ومن الممكن أن تفتقد عناصر التعليم أهميتها إذا لم يتوفر المعلّم الصالح الذي ينفث فيها من روحه. ولذا فانّ صلة المتعلم بالمعلّم أساسيّة وضرورية لحدوث عملية تعلُّم ناجعة، لأن الأستاذ بمثابة حجر الزاوية في عملية التعليم وهو المتولّي للقيادة التعليمية والتربوية (إبن جماعة، 2012: 96-111). فيذكر ابن قُدامة المقدسيّ والعَلمَوي أنّ على الطالب أن يُبدي أعلى درجات الطاعة والتواضع أمام معلّمه، فيقول المقدسيّ في ذلك: "وعلى المتعلّم أن يُلقي زمامه إلى المعلّم إلقاءَ المريض إلى الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته" (المقدسي، 1981: 25؛ العَلْمَوي، 2004: 63-73). هذا الأمر يفرض على المتعلّم أن يتعرف على الآداب السلوكية التي ينبغي أن يمارسها تجاه أستاذه لتقوية تلك العلاقة.

كانت شهرة العالم وسُمعته دافعاً لرحلة الطلاب إليه للتعلّم على يديه، لذلك دُعي بعض العُلماء بلقب "الرّحلة". وحسب منظور إبن جماعة يقول: "ينبغي للطالب أن يقدّمَ النظرَ ويستخيرَ اللهَ فيمن يأخُذُ العلم عنهُ، ويكتسبُ حَسَنَ الأخلاقِ والآدابِ منهُ، وليكُن إن أمكَنَ ممّن كمُلَت أهليتُهُ، وتحققت شفقتُهُ، وظهرت مُروءتُهُ، وعُرفت عِفتُهُ، واشتُهِرت صِيانتُهُ، وكان أحسنَ تعليماً، وأجوَدَ تفهيماً". يشير إبن جماعة الى أهميّة اختيار المعلّم، وتحديد عناصر كفايته وتعيين مسؤوليّاته، وأهم الصفات الواجب توافرها فيه، وبيان أهمّ وظائفه، المتمثلة في تنمية عقول المتعلّمين، وخُلُقهم ومهاراتهم واكسابهم المعارف والآداب المختلفة. ويؤكّد ابن جماعة أن تحقيق أهداف التعليم مرتبطة بحسن اختيار المعلّم، فالمتعلّم إذا أراد أن يبلغ مراده من طلب العلم، ويحقّق هدفه، عليه أن يعتمد على من هو أحسن تعليماً له، وأكثر تحقيقا فيه وتحصيلاً (إبن جماعة، 2012: 96). كما ويؤكّد الزرنوجي أيضاً على أهميّة اختيار المُعلّم (الأستاذ)، حيث ينبغي على الطالب "أن يختار الأعلَمَ والأوْرَعَ والأسَنَّ ...، بعد التأمّل والتفكّر"، وأن يتّصف الشيخ بالوقار والحلم والصبر في الأمور (الزّرنوجي، 1981: 72). ولكن إبن خلدون يرى بالرحلة في طلب العلم لها أهميّة خاصة في الأخذ عن عدّة علماء، فيقول: "فلقاء أهل العلوم، وتعدّد المشايخ، يفيده (للطالب) تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ... فالرحلة لا بُدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" (إبن خلدون، 2004: 385).

ينبغي على المتعلّم طاعة شيخه واحترامه، وتقديره والتواضع له، وأن ينقاد لشيخه في أموره. يُفهم من ذلك الانصياع للمعلّم احتراماً له، وعدم مناقشته، والثقة بما يفعله وما قد يصدر عنه، لأنّه الأقدر والأعرف بالشؤون كلّها وحتى بمصلحة المتعلّم ذاته. فالواجب على الطالب، كما يقول ابن جماعة: "أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرُجَ عن رأيهِ وتدبيره، بل يكون معهُ كالمريضِ معَ الطبيبِ الماهرِ، فيشاورُهُ فيما يقصدُ، ويتحرّى رِضاهُ فيما يعتمِدُهُ، ويبالغُ في حرمتِهِ، ويتقرب الى الله بخدمتِهِ، ويعلمُ أن ذُلَهُ لِشيخِهِ عِزٌ، وخُضوعهُ لهُ فخرٌ، وتواضُعُهُ لهُ رِفعَةٌ" (إبن جماعة، 2012: 97).

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

كان إجلال الشيخ أو المعلّم من وصايا إبن جماعة والعلماء الآخرون لطالب العلم بأن ينظر الى مُعلّمه "بعين الإجلالِ، ويعتقد فيهِ درجةَ الكمال، فإنّ ذلك أقربُ إلى نفعه به". يُمكن القول بأنّه لا طاعة إن لم يكن إجلال للشيخ. إنّ الإجلال واجب في مخاطبة الشيخ، وفي الجلوس معه، وفي طريقة طرح الأسئلة عليه والدخول إليه. لا بدّ للمتعلّم من تعظيم أستاذه وتوقيره لينتفع بما يتعلّم، فإنّ طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره (إبن جماعة، 2012: 98؛ الخطيب البغدادي، ج1، 1996: 270-292). ويحدّد الزّرنوجي آداب المُتعلّم مع شيخه (المعلّم) احتراماً له وتوقيره، قائلاً: "ومن توقير المعلّم أن لا يمشي أمامَه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه، ولا يُكثر الكلام عنده، ولا يسأل شيئاً عند ملالته ويُراعي الوقت، ولا يدقّ الباب بل يصبر حتى يخرج الأستاذ" (الزّرنوجي، 1981: 79).

من واجب المتعلّم أن يعرف حقّ العالم عليه، ولا ينسى فضله، وأن يقتدي به ويسلك مسلكه، ويذكره بالخير والترحّم عليه بع مماته، أي أن يحفظ حقّه، فيقول ابن جماعة: "وينبغي أن يدعو له مدةَ حياتهِ، ويرعى ذريته وأقاربه وأولاده بعد وفاته، ويتعاهد زيارةَ قبرهِ والاستغفار له والصدقةَ عنه، ويسلُكَ في السمتِ والهدي مسلكَهُ، ويراعي في العلم والدين عادتهُ، ويقتدي بحركاتهِ وسكناتهِ في عاداتهِ وعباداتهِ، ويتأدّبَ بآدابهِ ولا يدَعَ الاقتداءَ بهِ" (إبن جماعة، 2012: 100). وإذا صدرت جفوة من الشيخ، أو سوء خُلق، فما على المتعلّم إلا أن يصبر. وحسب رأي ابن جماعة، يجب على طالب العلم الصبر على الجفوة التي قد تصدر ازاءه عن معلّمه، وعلى الطالب أن يتحمّل حتى الإذلال إن صدر من المعلّم، لأنّه لا مذلّة في طلب العلم، فيقول ابن جماعة في ذلك: "أن يصبرَ على جفوةِ تصدُرُ من شيخه أو سوءِ خُلُقٍ، ولا يصُدّه ذلك عن ملازمته وحُسن عقيدته، ويتأوّل أفعالَهُ التي يظهرُ أن الصوابَ خِلافُها على أحسنِ تأويل" (إبن جماعة، 2012: 100).

إضافة إلى آداب الصبر والطاعة، على المُتعلّم أن يشكر شيخه على اعتنائه بأمره وبمصالحه، أو على كسل يصيبه أو قصور يعاني منه أو نقيصة صدرت منه أو غير ذلك، بحيث يهدف ذلك إرشاده وصلاحه. ومن الاعتراف بحقّ الأستاذ أن يشكر له صنيعه، وما قدّمه إليه من نصح أو توجيه، وأن يشكره على كل ما يصدر عنه، اذ أنّ العالم الفاضل فيه ما ينفع الطالب. يقول ابن جماعة أنّ على المتَعلّم: "أن يشكر الشيخ على توفيقه على ما فيه فضيلةٌ، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، أو قصور يعانيه، أو غير ذلك ... ويعدُّ ذلك من الشيخ من نِعَم الله تعالى عليه باعتناء الشيخ به" (المصدر السابق: 101). أمّا آداب الجلوس، فعلى المتعلّم أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، إذ لا يجوز الجلوس بين يدي المعلّم وفق ما يحلو للطالب وكيفما يشاء. ينبغي أن تكون جلسة الآداب بتواضع، ويصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ولا ينشغل عن الشيخ ولا يكثر كلامه من غير حاجة. فيقول ابن جماعة: "أن يجلس بين يدي الشيخ جِلسةَ الأدبِ كما يجلسُ الصبيّ بين يدي المقرئ، أو متربّعا بتواضعٍ وخُضوعٍ، وسكونٍ وخُشوعٍ، ويُصغي الى الشيخ ناظراً اليه، ويُقبلُ بكُلّيته عليه متعقّلاً لقوله بحيثُ لا يُحْوِجُهُ إلى إعادة الكلام مرةً ثانيةً" (المصدر السابق: 103).

أمّا إذا دخل المتعلّم على شيخه في مكان تواجده، فمن الواجب على **أن يدخل على الشّيخ باستئذان**، سواء كان الشيخ وحده أو مع الآخرين، وبطَرْقِ الباب بهدوء وأدب، وإن دخل على الشيخ وكان مشغولاً لا يزعجه ولا يُطيل البقاء عنده ويختار الوقت المناسب لذلك. يقول ابن جماعة في هذا السياق: "أن لا يَدخُلَ على الشيخ في غير المجلس العامّ إلا باستئذان، سواء كان الشيخ وحدهُ أو كان معهُ غيرُهُ، فإن استأذنَ بحيثُ يعلمُ الشيخُ ولم يأذنَ لهُ انصرفَ، ولا يكرِّرُ الاستئذانَ" (المصدر السابق: 101-102).

كما على المتعلّم أن يتأدّب بحسن مخاطبة الشيخ بألاّ يناديه باسمه، بل وَجَبَ عليه أن يستخدم الألفاظ الدالّة على مكانته، وفضله وعلوّ قدره. يقول ابن جماعة: "أن يُحسِنَ (المتعلّم) خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان ...

وليتحفّظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه ولا يليق خطابُهُ به ..." (المصدر السابق: 105-106). ومن جهة أخرى، عليه أن يتأدّب بأدب الاستماع للشيخ والاصغاء له، إذ أنّ هناك آداب للمخاطبة مع المُعلّم. فيشدّد إبن جماعة على آداب الاصغاء والاستماع له، والتي ينبغي على طالب العلم أن يتحلّى بها. فيقول ابن جماعة في ذلك: "اذا سمع الشيخ يذكر حُكماً في مسألة، أو فائدة مُستغرَبَة، أو يحكي حكايةً، أو ينشد شعراً، وهو يحفظ ذلك، أصغى اليه إصغاء مستفيدٍ له في الحالِ، متعطشٍ إليه، فرِحٍ به، كأنّه لم يسمعهُ قط" (المصدر السابق: 107). أي أنّ يتجنب المتعلّم عن ذكر معرفته بها، بل عليه أن يصغي ويحسن الاصغاء لمعرفة ما يسمعه. وهذا ما يؤكّده الزّرنوجي في تعامُل المتعلّم مع شيخه حتى لو تطلّب الأمر بأن ينبغي أن يتملّق لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم. ويؤكّد الزّرنوجي ذلك قائلاً: "وينبغي لطالب العِلم أن يستمع العِلم والحكمةَ بالتعظيم والحُرمة، وإن سمع مسألة واحدة أو حكمةً واحدة ألف مرّة". كما وينبغي على الطالب أن يفوّض أمره إلى المُعلّم في اختيار نوع العلم الذي يُناسبه، وذلك لمعرفة وخبرة المُعلّم فيما يليق بطبيعة الطالب (الزّرنوجي، 1981: 85-86).

ومن أدب كلام المتعلّم مع الشيخ خلال الدرس، يقول ابن جماعة: "وَجَبَ على المتعلّم أن لا يسبق الشيخ الى شرح مسألةٍ، أو جواب سؤالٍ منه، أو من غيره، ولا يساوِقه فيه، ولا يظهر معرفته به، أو إدراكه له قبل الشيخ، فإن عرَضَ عليه الشيخ ذلك ابتداءً والتمسه منه فلا بأس" (إبن جماعة، 2012: 108). هذا يعني ان يتأدب المتعلّم بكلامه مع الشيخ خلال الدرس، ويتجلّى ذلك بعدم إظهار المتعلّم معرفته في مسألة أو ادراكه لها قبل الشيخ بل عليه انتظار الشيخ حتى يسأله.

أما فيما يتعلّق بأدب خدمة الشيخ، فيتوجب على المتعلّم أثناء خدمته أستاذه أن يلزم نفسه باحترام وأدب المناولة للشيخ، ويقوم ليأخذ منه شيئاً أو يعطيه. وهكذا يقول ابن جماعة: "إذا ناوله الشيخ شيئا تناوله باليمين، وإن ناوله شيئا ناوله باليمين" (المصدر السابق: 108). كذلك في أدب المشي مع الشيخ، وجب على المتعلّم أن يعمل جهده على خدمة أستاذه ومساعدته ويلزم نفسه الآداب الحميدة في تعامله معه وتقديم الحماية له من الضرر والأذى. فيقول ابن جماعة: "إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل ووراءه بالنهار إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك لزحمةٍ أو غيرها، ويتقدّم عليه في المواطئ المجهولة الحال كوحلٍ، أو خوضٍ، أو المواطئ الخطرة، ويحترز من ترشيش ثياب الشيخ" (المصدر السابق، 110).

آداب المتعلّم في درسه

من خلال آرائه في التربية الاسلامية، يظهر إبن جماعة بمثابة المرشد لطلبة العلم، من حيث آداب التعامل والسلوك، طرق الدراسة والتدريس، تحديد مراحل التعليم وأولويات مواد الدراسة ومواضيعها حسب أهميّتها وتناسبها للمتعلّم. إذ على المتعلّم الابتداء بالأهم فالمهمّ في مراحل التعليم ومواد العلم والدراسة، فيقول ابن جماعة في ذلك: "أن يبتدئ أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه فإنّه أصل العلوم وأُمّها وأهمّها" (إبن جماعة، 2012: 112-124؛ العَلْمَوي، 2004: 73-79). أي ينبغي على المتعلّم أن يبدأ بقراءة القرآن الكريم أوّلاً لكونه أهمّ العلوم وأساسها ومنبعاً لبقيّة العلوم، وينبغي عليه حفظه وإتقان تفسيره وأن يحذَر مِن الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالًا يؤدّي إلى نسيانِ شيء منه، أو تعريضه للنسيان. لذلك اهتمت التربية الإسلامية في التركيز على حفظ القرآن وتعليمه في مرحلة الكُتّاب، التي تعتبر أولى مراحل التعليم للمتعلّمين، إضافة إلى تعلّم أسس اللغة العربية والقراءة وبعض الحساب (إبن جُبير، 1984: 244-245؛ إبن بطوطة، ج1، 1987: 110؛ إبن قاضي شُهبة، ج3، 1977: 537). فيقول ابن خلدون في ذلك: "إعْلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين ... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل

بعدُ من المَلَكات... واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم... فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط..." (إبن خلدون، ج2، 2004: 353).

كما يؤكّد الكثير من العلماء أهميّة الإحتراز من الخوض في العِلم في مبتدأ الأمر، لأنّ ذلك يحيّر العقول، وينبغي على طالب العلم أن يأخذ من كلّ علم أحسنه، لأنّ العمر لا يتّسع لجميع العلوم. فعلى المتعلّم أن يصرف أكثر وقته في أشرف العلوم، أي العلوم المُتعلّقة بالأمور الدّينيّة والتي بها يكتسب اليقين والفوز بالآخرة (المقدسي، 1981: 26؛ إبن عبد البِرّ، 1996: 25-26، 27-32). ويشدّد الزّرنوجي على أهميّة صبر الطالب على المعلّم في أخذ العلوم عنه، "وأن لا يَشتغِلَ بفنٍّ آخر قبل أن يُتقن الأوّل"، حتى لا يضيع الأوقات ويشتّت الأمور ويشغل قلبه بأمور أخرى (الزّرنوجي، 1981: 75؛ إبن عبد البِرّ، 1996: 41-45).

كذلك في مراحل التعليم الأعلى، ما بعد الكُتّاب، يرشد إبن جماعة المعلّم حول أولويّة المواضيع التي يُدرّسها للمتعلّمين والتدرّج بها، لتتناسب مع المقدرة العقلية للطالب واهتماماته من حيث صعوبتها وتوقيتها وملاءمتها. فيضع ابن جماعة منهاجاً في أهميّة المواضيع وأولويّتها للدراسة والتعليم، فيقول في هذا السياق: "... إذا تعدّدت الدروس قُدّم الأشرف فالأشرف والأهمّ فالأهمّ. فيُقدّم تفسير القرآن ثمّ الحديث ثمّ أُصول الدّين ثمّ أُصول الفقه ثمّ المذهب ثمّ الخلاف أو النّحو أو الجدل ..." (إبن جماعة، 2012: 64). ويذكر إبن خلدون (ج2، 2004: 171-204) العلوم الشرعيّة (النقليّة) التي كانت منتشرة في عهده (القرن الرابع عشر من العصر المملوكي)، ومقارنتها بين بلاد المشرق الإسلامي وبلاد المغرب الإسلامي، كما يوصي الخطيب البغدادي (ج1، 1996: 159-170) أن يكون القرآن أوّل العِلم ومن ثم الحديث.

من خلال تراجم العلماء والدارسين في العصرين الأيوبي والمملوكي في بلاد الشام، يظهر أنّ العلوم الشرعيّة كانت شائعة في هذه الفترة حسب أولوياتها: الحديث، الفقه، علوم القرآن، والعلوم الدينية الأخرى، ثم علوم اللغة العربية (Mahamid, 2013: 268-280). وقد حذّر إبن جماعة من الخوض في الخلافيات أوّل الأمر، أي الإبتعاد عمّا يثير الخلاف والجدل من أمور العلم حتى يكون متمكّناً من العلوم الأهمّ ولا يؤثّر على مفهومه وإدراكه. إذ اهتمّ ابن جماعة بكلّ ما يكوّن المتعلّم تكويناً سليماً، فدعا المتعلّم أن يحذر من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس لأن الاشتغال بتلك الأمور يلحق به الضرر، إذ يشوّش فكره، أو يصيبه بالملل، ويفوّت عليه تحصيل العلوم. يقول ابن جماعة بواجب المتعلّم: "أن يحذر في ابتداء أمره من الإشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقاً في العقليّات والسمعيّات، فإنّه يحيِّر الذهن ويدهِشُ العقلَ" (إبن جماعة، 2012: 113).

طريقة القراءة والحفظ أيضاً لها آداب في منظور إبن جماعة، حيث يوصي مثلاً بتصحيح ما يُقرأ قبل حفظه، أي أن يصحّح المتعلّم ما يقرؤه قبل حفظه. هذه الطريقة تعين المُتعلّم على العلم ثم حفظه حفظاً جيّداً، كي يكون واثقاً من صحّة محفوظاته ودقّتها، حتى لا تلتبس الأمور عنده. فيذكر إبن جماعة حول اهتمام المتعلّم، قوله: "أن يصحِّح ما يقرأهُ قبل حِفظِهِ تصحيحا متقناً، إمّا على الشيخ أو على غيره ممَّن يعينه، ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً مُحكماً، ثم يكرِّر عليه بعد حفظهِ تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقاتٍ يقررها لتكرارِ مواضيعه" (المصدر السابق، 2012: 114).

هذا الأسلوب من المُذاكرة والحفظ والتصحيح يشدّد عليه غالبية أهل التربية والعلم في الإسلام. فالزّرنوجي، مثلاً، يشدّد على هذه الطريقة في التدريس لأهميّة المراجعة والتكرار بقوّة ونشاط عدّة مرات لما سبق من الدروس، حيث عن طريق التكرار يُكتسب الحفظ. ولكن الزّرنوجي يؤكّد على أهميّة التأمّل والتفكّر بالترافق مع

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

كثرة التكرار باجتهاد حتى يُدرك الفهم. وهذه الطريقة من الدراسة تحتاج إلى التدرّج في المذاكرة والمناظرة والمطارحة، أي النقاش والبحث، وذلك لاستخراج الصواب بالتأمّل والتأنّي (الزّرنوجي، 1981: 102-112).

لأهميّة الحديث النّبويّ لكونه من أصول الدّين والعلوم الدينيّة، يوصي إبن جماعة المتعلّم التبكير بسماع الحديث والاعتناء بعلومه. فيقول إبن جماعة في هذا السّياق: "أن يبكّر بسماعِ الحديثِ، ولا يهمل الاشتغالَ به وبعلومه، والنظرَ في إسنادِهِ، ومعانيهِ، وأحكامهِ، وفوائدهِ، ولغتهِ، وتواريخه" أي أن يهتمّ المُتعلّم بدراسة الحديث وتعلّمه في جيل مبكر، بسماعه والإشتغال بعلومه روايةً ودرايةً، ولغته وفهمه، "بل يعتني بالدّراية أشدّ من الرّواية"، كما يقول ابن جماعة. وعلى المتعلّم أن يهتم بتواريخه وكتب الحديث ومؤلّفيه والاعتناء أولاً بصحيح البخاري ومسلم ثم ببقية الكتب والأعلام والأصول المعتمدة. بعد تعلّم القرآن والحديث يوصي بن جماعة بالانتقال إلى بحث المبسوطات، أي أن يتابع طالب العلم جميع العلوم وينظر فيها ليعرف مقصدها وغايتها، ثم يتبحّر بها من حين كبره، أي مرحلة التخصّص بعد أن ترسّخت في فهمه علوم أصول الدّين من قرآن وحديث، بمعنى أن يتثقف المتعلّم ويوسّع مداركه بدايةً من الأصول إلى الفروع، حتى يتخصص في علم دقيق، لارتباط العلوم مع بعضها البعض. يقول ابن جماعة: "إذا شرح محفوظاته المختصرات، وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمّات: انتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة" (إبن جماعة، 2012: 115).

كذلك أورد السّمعاني (1993) شرحاً شبيهاً ومفصّلاً حول آداب طالب الحديث (المُستَمْلي). ويذكر الزّرنوجي أنّ على الطالب أن يبتدئ بشيء يكون أقرب إلى الفهم، بأن يختار صغارات الكتب المُبسّطة، أي الكتب الصغيرة التي تتضمّن خلاصات الكتب المطوّلة (الزّرنوجي، 1981: 101). في هذه الفترة من الصراعات الفكرية والسياسيّة، قبل ابن جماعة، يبدو أنّ التركيز على تعليم الحديث بالرّواية كان غالباً على تعلّمه بالدّراية. هكذا فعل السّلطان الأيوبي الأشرف موسى (ت 635هـ/1237م)، الذي تشدّد في علوم الدين ودرس الحديث، فشَرَطَ في وقفيّته على "دار الحديث الأشرفيّة الجوّانيّة" في دمشق، حسب المُؤرّخ النّعيمي، قائلاً: "... كذلك من شُروط الواقف ... في الشّيخ، أنّه إذا اجتمع مَن فيه الرّواية ومَن فيه الدّراية قُدّم مَن فيه الرّواية ..." (النّعَيمي، ج1، 1981: 19-20).

هذا التدرّج في العلوم والدراسة حتى بلوغ الغاية المرجوّة، يتطلب من المتعلّم آداب ملازمة حلقة الشيخ (المعلّم) بأن يحضر الطالب دروس شيخه وأن يعتني بسائر الدروس ولا يتأخّر إلى بعد جلوسه وجلوس الجماعة، فإنّ ذلك منفعة وعلم وشرف وتجليل. فيوصي ابن جماعة طالب العلم: "أن يلزَمَ حلقَةَ شيخِهِ في التدريسِ والإقراءِ، بل وجميعَ مجالسِهِ إذا أمكَنَ، فإنّهُ لا يزيدُهُ إلا خيراً وتحصيلاً وأدباً وتفضيلاً". فمن المطلوب، بل الواجب، أن يتأدّب الطالب في حلقة الدرس. فينبغي أن يحضر إلى الدّرس على أحسن الهيئات وأكمل الطهارات. إذ عليه الحضور قبل حضور المدرّس والالتزام بالأدب والسلوك الحسن بإلقاء التحيّة على الحاضرين. يقول ابن جماعة: "أن يتقدّمَ على المدرِّسِ في حضورِ موضِعِ الدرسِ، ولا يتأخّرَ إلى بعد جُلوسِهِ وجلوسِ الجماعةِ فيُكلِّفَهم المُعتادَ مِنَ القيامِ وردِّ السَّلامِ، وربَّما فيهم معذورٌ فيجِدُ في نفسِهِ منهُ ولا يعرفُ عُذرَهُ" (إبن جماعة، 2012: 145). كما أورد الخطيب البغدادي أيضاً حول آداب السّماع في حلقة الحديث، بقوله: "أوّل ما يلزمُ الطالب عند السّماع أن يَصْمُت ويُصغي إلى استماع ما يَرويه المُحدّثُ" (الخطيب البغدادي، ج1، 1996: 292-305).

ومن آداب المتعلّم عند حضوره الى الحلقة (الدّرس) وجلوسه فيها، أن يسلّم على الحاضرين بصوت عال يسمعه الجميع، ويخصّ الشيخ بالتحيّة والإكرام، وكذلك عند الانصراف. كما ينبغي من أدب المتعلّم أن يجلس حيث ينتهي به المجلس وهو في ذلك لا يتخطّى رقاب الآخرين لاختيار المكان القريب من المعلّم/ الشيخ. كما ويتطلّب منه أن يجلس بهيئة طالب العِلم أمام أستاذه مُراعيا في ذلك الجلسة الصحيحة. يقول ابن جماعة: "وجبَ على

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

المتعلّم إذا حضر مجلس الشيخ سلَّمَ على الحاضرين بصوتٍ يُسمِعُ جميعهم، وخصَّ الشيخَ بزيادةِ تحيَّةٍ وإكرامٍ، وكذلك يُسلّم إذا انصرف" (إبن جماعة، 2012: 118).

كان الطلبة والمتعلّمون عادة في حلقات العلم متفاوتين في الأعمار. لذا وَجَبَ على المتعلّم أن يتأدّب مع حاضري مجلس الشيخ ويحترم من كانوا في المجلس من صغيرهم وكبيرهم، والاهتمام بعدم التفريق بين اثنين في المجلس، وألا يقطع عليهم حديثهم أثناء درسهم. إنّ مراعاة تلك الآداب تهدف الى تحقيق العلاقة العلميّة بين حاضري مجلس العِلم أثناء الدرس وتوثيق أواصر العلاقة بينهم، وإيجاد نوع من التوافق والإنسجام، ويُسر التعامل وتجنّب كلّ ما من شأنه أن يثير سوء التفاهم بين الحاضرين. وهذا ما يُحسّن الأجواء التعليمية والأخلاقية بين الجميع، فيقول ابن جماعة في ذلك: "وينبغي على المتعلّم أن يتأدّب مع حاضري مجلس الشيخ، فإنّه أدبٌ معه واحترامٌ لمجلسهِ وهم رُفقاؤُهُ، فيوقرُ أصحابهُ، ويحترمُ كبراءهُ، وأقرانهُ، ولا يفرّقُ بين رفيقين ولا بين متصاحبين إلا بإذنهما معاً" (إبن جماعة، 2012: 119). كما ينبغي للمتعلّم عدم التقدّم على نوبة غيره، أي أن يلتزم دوره أو نوبته فلا يتقدّم على زملائه ويتخطاهم مخالفاً الآداب العامّة، ويجوز له أن يقدّم زميله عليه لحاجة، أو مصلحة تقتضي ذلك. يقول ابن جماعة، يتوجب على المتعلّم: "مراعاةُ نوبتهِ فلا يتقدّمُ عليها بغيرِ رضا من هي له" (المصدر السابق، 2012: 121).

القراءة على الشيخ لها آداب لا بد أن يراعيها المتعلّم، فيقول ابن جماعة في ذلك: "أن يكون جلوسه بين يدي الشيخِ على ما تقدّم تفصيلُهُ وهيأتُهُ في أدبهِ معَ شيخهِ ويحضرُ كتابَهُ الذي يقرأُ منهُ معهُ ويحمِلُهُ بنفسهِ مفتوحاً بين يديه ولا يقرأُ إلا بعد أن يأذنَ له الشيخ" (المصدر السابق، 2012: 122). عند بداية الدّرس وافتتاحه (فواتح الدرس)، يكون من آداب قراءة المتعلّم على الشيخ، أن يستأذن منه بالبدء بالدّرس والدعاء له ولوالديه ولنفسه ولسائر المسلمين والترحّم لصاحب الكتاب عند قراءته. يقول ابن جماعة، وجَبَ على المتعلم "إذا حضرت نوبته استأذن الشيخ فإذا أذنَ له استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يسمّي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي وعلى آله وصحبه ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه ولنفسه ولسائر المسلمين" (المصدر السابق، 2012: 123). أمّا أدب السؤال، فينبغي أن لا يستحي المتعلّم من سؤال الشيخ حول ما لا يفهمه وأن يتلطَّف في سؤالِه، ويُحسنُ خطابهُ لأنّ السؤال مفتاح العلم، ومن ترك السؤال حياءً أو كبراً فمصيرُهُ الجهل. يقول ابن جماعة: "أن لا يستحيي من سؤالِ ما أشكَلَ عليه، وتفهُّمِ ما لم يتعقّلهُ، بتلطّفٍ، وحُسنِ خطاب، وأدبٍ، وسؤال" (المصدر السابق، 2012: 120).

يهتمّ ابن جماعة أيضاً بالتعاون بين طلبة العلم على المُذاكرة وتبادل المعلومات والإرشاد فيما بينهم وترغيب الطلبة في التحصيل. فمن الآداب في ذلك، ينبغي على الطالب أن يُرشِدَ رفاقه وغيرَهم مِن الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة، ويذكر لهم ما استفاده على جهةِ النصيحة والمذاكرة، وبإرشادهم يبارَكُ له في علْمه، ويستنيرُ قلبُه، ويحمد الله على ذلك ويستزيد منه بدوام شكره. يقول ابن جماعة في هذا السياق: "أن يُرغّب بقيةَ الطلبةِ في التحصيل ويدلَّهم على مظانِّه ويصرفَ عنهم الهموم المشغِلَةَ ويهوِّن عليهم مؤنتهُ ويذاكرهم بما حصَّله من الفوائد والقواعد والغرائب وينصحهم بالدّين، فبذلك يستنيرُ قلبُهُ ويزكو علمُهُ" (المصدر السابق، 2012: 124). ويذكر الزّرنوجي أنّ على طالب العلم أن يشاور معارفه أو أصحابه في كلّ أمر، حتى في اختيار المُعلّم. فيقول: "... فطلب العِلم من أعلى الأمور وأصعبها، فكانت المشاورة فيه أهمّ وأوجب" (الزّرنوجي، 1981: 72-74).

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255)
15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

آداب المتعلّم مع الكُتب

انتشرت المكتبات في العصور الإسلامية الأولى في قصور الحُكّام والخلفاء وكذلك في بيوت العلماء. وفي العصر العباسي بدأت تنتشر المكتبات العامّة في بيت الحكمة في بغداد ثم دار العلم في القاهرة وغيرها. ومنذ انتشار المدارس التي تعتمد على الأوقاف الخيرية منذ القرن الثاني عشر، أصبحت هذه المؤسّسات تحتوي على المكتبات لخدمة الدارسين والمدرّسين فيها. وفي عهد إبن جماعة في العصر الأيّوبي والمملوكي ترسّخ نظام المكتبات في المدارس وأوقافها، مما تطلّب وضع النّظم والاهتمام في صيانتها وإدارتها للحفاظ على موروثها من الكتب والمنسوخات، للدراسة والمطالعة والنسخ منها وكذلك استعارتها (النّشّار، 1993؛ العِشّ، 1991؛ الحلوجي، 1982؛ حمادة، 2000؛ الصّوفي، 1987). يذكر إبن طولون (ت 953هـ/1546م) حول المدرسة الضيائيّة ومكتبتها في دمشق، مثلاً بوصفها قائلاً: "... كان بهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الحديثيّة، حتى يُقال أنّه كان فيها خطّ الأئمّة الأربعة، حتى يُقال أنّه كان فيها التوراة والإنجيل..." (إبن طولون، ج1، 1980: 132، 138؛ النّعيمي، ج2، 1988: 92-94؛ إبن كثير، ج13، 1988: 153؛ Mahamid, 2013: 240-259).

من هنا، جاء اهتمام ابن جماعة في الحديث عن الآداب في مصاحبة الكتب، حيث تطرّق الى أهميّة جمع الكتب وعن إعارتها للاستفادة منها، وعن كيفيّة المحافظة عليها أثناء قراءتها، ثم قام بترتيب كتب العلم من حيث أهميتها. أوضح بعض العُلماء وأصحاب الوقف في وقفيّاتهم الجهة التي تستحقّ استخدام أو استعارة الكتب التي أوقفوها. فمنهم مثلاً من جعلها في خدمة طلبة العلم كافّة، مثل العالم قطب الدين النيسابوري (ت 578هـ/1182م)، ومنهم من حدّدها لفئة معيّنة من الطلاب، مثل قُوام الدين محمد الحنفي (ت 858هـ/1454م)، الذي خصّصها لطلبة العلم على المذهب الحنفيّ في دمشق: "... كان قد وقف كتبه على الحنفيّة بدمشق..." (النّعيمي، ج1، 1981: 361، 640؛ إبن حجر العسقلاني، ج1، 1992: 135-136).

يضع ابن جماعة الأسس والقواعد لتعامل طالب العلم مع الكتب. فحول العناية بجمع الكتب، كان رأي إبن جماعة في تحصيل الكتب أنّ الطريقة الأفضل والنافعة هي إمّا شراء الكُتب أو الاستعارة أو الاستئجار، وليس إضاعة الوقت في نسخها، إلا إذا كان الكتاب نادر الوجود، فيقول مثلاً: "ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكُتب المُحتاج اليها ما أمكنه، شراءً، وإلا فإجارةً أو عاريّةً، لأنّها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها من العلم، وجمعها نصيبهُ من الفهم" (إبن جماعة، 2012: 126). أي أنّه ينبغي للمتعلم أن يبذل جهده في توفير الكتب والمراجع التي يحتاج اليها في سبيل طلبه للعلم عن طريق شرائها أو استئجارها أو استعارتها. ولكن ابن جماعة يؤكّد للمتعلّم أنّ جمع الكتب وتحصيلها ليس كافياً في حصول الرِّفْعَةِ والتقدّم في العلم، بل لا بدّ أن يَضُمَّ إلى ذلك الْجِدَّ والاجتهاد في الطلب، وكثرة المطالعة بها، وبذل الجهد والوقت في نظرها. كما يؤكّد العَلمَوي هذه الآداب في التعامل مع الكُتب وما يتعلّق بتصحيحها وضبطها وشرائها وعاريّتها ونسخها وغير ذلك (العَلمَوي، 2004: 130-139).

كما ويحدّد ابن جماعة قواعد الآداب في إعارة الكتب واستعارتها. فهو يحثّ المتعلّم على إعارة الكتب، وأن يعير زملاءه كتبه ومراجعه ويستعير منهم، وذلك لما يناله من المعير من الثواب والأجر. وعلى المستعير للكتاب أن لا يطيل الكتاب عنده من غير حاجة، بل عليه أن يردّه إذا قضى حاجته منه، حيث يقول ابن جماعة في ذلك: "يُستحبُّ إعارةُ الكتبِ لمن لا ضرر عليه فيها ممّن لا ضرر منه بها" (إبن جماعة، 2012: 126؛ السّمعاني، 1993: 598-608). فالباحث يوسف العِشّ يستشهد بأحد الشروط والأصول للتعامل مع الكتُب الموقوفة، فيقول عن واقفها: "... وقفه على المنتفعين به ابتغاء ثواب الله ومرضاته، فلا يُباع ولا يوهبُ ولا يورثُ ولا يُعارُ إلاّ برَهْن" (العِشّ، 1991: 249-250). ومنهم من كان يرفض إعارة كتبه لأنّها كانت بمثابة كنز فلا تُعار لقلّتها أو

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

لصعوبة الحصول عليها أو خوفاً على الإضرار بها. فيقول أحد العلماء، بدر الدّين محمد إبن مكّي (ت 742هـ/1341م) الذي رفض إعارة الكتب لأحد أصحابه المُقرّبين، معتذراً على عدم إعارته كتاباً (إبن قاضي شُهبة، ج2، 1994: 287):

قال لي صاحبي أعِرني كتاباً هو أُنسي ليلاً ودرسي نهارا

قُلتُ قد قيلَ ما يُمهّد عُذري شَغَلَ الحُلِيُّ أهلَهُ أن يُعارا

ومنهم من رأى بإعارة الكُتُب عملاً حسناً وتفضيلاً، له علامات الكرم والجود. فنلاحظ أحد العلماء، عزّ الدين بن السّويدي، يكتب قصيدة مديحاً لمن أعاره كتاباً نادراً للاستفادة منه والاطلاع عليه عام 632هـ/1234م، يقول فيها (إبن أبي أُصَيْبِعة، 1965: 759-760):

وامنُنْ فأنتَ أخو المَكارِمِ والعُلى بكتابِ شرحٍ ونافعِ الأعضاءِ

وإعارةُ الكُتُبِ الغريبةِ لم تزلْ من عادةِ العُلَماءِ والفُضَلاءِ

كذلك، يقتبس السّمعاني الأمثلة العديدة من الشّعر في إعارة الكُتب، دلالة على حُسن الكرم والمعاملة في الإعارة والاستعارة، بالإضافة إلى أهميّة التعامل معها وآدابها(السّمعاني، 1993: 600؛ الخطيب البغدادي، ج1، 1996: 369-382): فيذكر السمعاني قائلاً:

كُتُبي لأهلِ العِلمِ مبذولةٌ أيديهمُ مثلُ يدي فيها

متى أرادوها بِلا مِنّةٍ عاريّةً فليَسْتَعيروها

حاشايَ أن أكتُمَها عَنْهُمُ بُخْلاً كما غَيْري يُخَفّيها

أعارَنا أشياخُنا كُتْبَهُمُ وسُنّة الأشياخِ نُمْضيها

كان لصيانة الكتب وترتيب المكتبة في عهد ابن جماعة أهميّة خاصّة. فقد خدمت المكتبة عدّه مهامّ، منها خزن الكتب، المطالعة والمذاكرة، ومنها للبحث وجمع المعلومات ونسخ الكتب أو أجزاء منها (العِشّ، 1991: 395-398). كانت الكتب تُحفظ في المكتبة في خزائن الكتب، كما سُميت في تلك الفترة من العصرين الأيوبي والمملوكي، بهدف صيانتها، تنظيمها وترتيبها. وقد أوجب ذلك تعيين موظفين أصحاب مهارة خاصة في خدمة هذه الكتب، فمنهم من سُمّي "خازن الكتب"، ومنهم "مُناوِل الكتب"، الذي يقدّم الكتب ويناولها لطالبها (النُّعَيْمي، ج1، 1981: 361).

تفقُّد صحّة الكتاب قبل أخذه، أي شرائه أو استعارته، كان لها نظرة أخلاقية في نظر ابن جماعة. فينبغي على المُتعلّم أن يتفقّد صحّة الكتاب قبل استعارته أو شرائه، بحيث يقوم بتصفّح أوراق الكتاب ليتأكد من عدم وجود أي ضرر أو تلفٍ ما. فيقول ابن جماعة في ذلك: "إذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقّدهُ عند إرادةِ أخذهِ وردِّهِ وإذا اشترى كتاباً تعهّد أوَّلهُ وآخرهُ ووسطهُ، وترتيبَ أبوابهِ وكراريسهِ، وتصفّحَ أوراقهُ، واعتبر صحّته" (إبن جماعة، 2012: 129).

أمّا أدب نسخ الكتب، فقد أوصى ابن جماعة المُتعلّم أن يحافظ على الكتب من حيث التعامل معه بطريقة وضعه على الأرض، وعدم الاهمال باستعماله، وكيفيّة فتحه وطيّه، بأن لا يطوي حاشية الورق أو زاويتها ويعلّم بورقة. ويقول ابن جماعة في هذا السياق: "إذا نسخَ من الكتاب أو طالعهُ فلا يضعُهُ على الأرض مفروشا منشوراً،

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

بل يجعلهُ بين كتابين أو شيئينِ أو كرسي الكتبِ" (إبن جماعة، 2012: 128). ومن الآداب أيضاً، يشدّد ابن جماعة على أن يكون المتعلّم على طهارة، مستقبلاً القبلة عند نسخه للكتب الشرعية ويبتدئ بكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم"، وحمده الله وشكره والصلاة على نبيّه، وذلك لأهميّة تقديس كتب العلوم الشرعية. فيقول ابن جماعة في ذلك: "إذا نسخ (المتعلّم) شيئاً من كتبِ العلومِ الشرعيةِ فينبغي أن يكون على طهارةٍ، مستقبلَ القبلةِ، طاهرَ البدنِ والثيابِ، بحبرٍ طاهرٍ، ويبتدئ كلّ كتاب بكتابةِ: (بسم الله الرحمن الرحيم)" (إبن جماعة، 2012: 130). هذا التعامل مع الكتب في منظور ابن جماعة يتوافق مع رأي الزّرنوجي، حيث من الواجب تعظيم الكتُب الدينيّة والتعامل معها بأدب وطهارة واحترام، حيث يقول الزّرنوجي في ذلك: "ومن تعظيم العِلم: تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ الكتاب إلا بطهارة... وأن لا يمدّ الرِّجلَ إلى الكتاب، ويضع كتاب التفسير فوق سائر الكتب، ولا يضع شيئاً آخر على الكتاب" (الزّرنوجي، 1981: 80-85).

فالحاجة إلى الكتب إمّا نسخاً أو شراءً أو استعارة، في هذه الفترة، روّجت مهنة النسخ للكتب وبيعها، من قبل بعض العُلماء أو ذوي مهارات الخط والكتابة. كما ساعد على رواج أسواق الكتب في المدن الرئيسية في مصر والشام، كما هو سوق الكُتب (سوق الكُتُبيّين) في دمشق وحلب والقاهرة مثلاً، وتسمّى أيضاً بسوق الورّاقين، لبيع الكتب، الأوراق وأدوات الكتابة وتجليد الكتب وغيرها (النّعيمي، ج1، 1981: 95، 223، 273، 401-402؛ نفسه، ج2، 1988: 47-48، 391، 400، 401؛ إبن أبي أُصَيْبِعة، 1965: 688؛ إبن حجر العسقلاني، ج1، 1992: 305، 352، 405، 481-482؛ نفسه، ج2: 31، 200، 349، 419؛ نفسه، ج3: 402؛ إبن كثير، ج13، 1988: 25، 215، 300؛ نفسه، 14: 8، 185-186؛ إبن قاضي شُهبة، ج3، 1977: 427؛ إبن طولون، ج1، 1980: 132-133؛ الطبّاخ، ج5، 1989: 236-237، 441؛ اليونيني، 1998: 196-201).

هذه الأمور حول الكُتب ورواجها، ساعدت على تزويد المكتبات بالكتب النادرة أو المطلوبة لدى طلبة العلم، حتى أنّه بدأت تنتشر المكتبات الخاصّة في بيوت العلماء من ذوي اليسار. فمثلاً، القاسم إبن عساكر (ت 600هـ/1203)، إبن المؤرّخ الدمشقي الشهير "إبن عساكر" نسخ الكثير من الكتب ومن ضمنها مؤلّفات والده "تاريخ دمشق" (النُّعيمي، ج1، 1981: 102؛ النُّعيمي، ج2، 1988: 78، 85-86، 128-129، 178؛ إبن كثير، ج14، 1988: 158؛ إبن حجر العسقلاني، ج2، 1992: 386-387؛ إبن أبي أُصَيْبِعة، 1965: 673). أمّا الكاتب والأديب شهاب الدين أحمد النّوَيْري (ت 733هـ/1332م)، صاحب كتاب "نهاية الأرب في فُنون الأدب"، فقد تعامل أيضاً بنسخ الكتب للتجارة وكسب الرزق، وقد نسخ كتاب البخاري في الحديث ثمانين مرّة لبيعها، كما نسخ كتابه "نهاية الأرب" المؤلّف من ثلاثين جزءاً بهدف البيع والتجارة (إبن حجر العسقلاني، ج1، 1992: 197). ومنهم من استأجر النّسّاخ لنسخ الكتب مقابل الأموال، إمّا بهدف التفرّغ للتعليم، وإمّا للحصول على الكتب النادرة، مثال موفّق الدين إبن المُطران (ت 587هـ/1191م)، الذي استأجر ثلاثة نُسّاخ للحصول على الكتب النادرة في الطبّ، حتى أصبحت مكتبته غنيّة بالكتب الثمينة والنادرة تحوي على عشرة آلاف كتاب (إبن أبي أُصَيْبِعة، 1965: 655). أمّا أمين الدّولة السّامري (ت 648هـ/1250) فقد استأجر عشرة نُسّاخ مما أغنى مكتبته، ويقول فيه إبن أبي أُصَيْبعة: (... واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم. وكانت النُسّاخ أبداً يكتبون له ... إجتمع عنده في خزانته أكثر من عشرين ألف كتاب..." (المصدر السابق، 725).

مع انتشار مهنة النسخ لأهداف شخصيّة أو لأهداف تجارية، أصبح تحسين الخطّ وإختيار أدوات الكتابة فنّاً له أدبيات وأهميّة خاصّة. فينصح ابن جماعة المتعلّم بأن يتجنّب الخطّ الرديء لما يسبّبه من إيذاء وألم للعينين، ولهذا فالمتعلّم مُطالب على الدوام في تحسين الخطّ، لأنّ الخطّ الحسن دلالة على صحّة الكتابة ووضوحها.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

فيقول ابن جماعة في هذا السياق: "ينبغي أن يتجنَّبَ الكتابةَ الدقيقةَ في النسخِ، فإنَّ الخطَّ علامةٌ فأبينُهُ أحسنُهُ" (إبن جماعة، 2012: 131).

كما يشير ابن جماعة وغيره من العُلماء الى أدب تصحيح الكتاب وضبطه، بأنّ له أهمية بمراجعة الكتابة وضبطها وتدقيقها، بهدف تفحّص الإملاء والكشف عن الأخطاء والاهتمام بتصحيحها. هذا العمل يظهر أهميّة الدّقة في صحّة الكتابة والوضوح في جميع نواحي الكتابة، حتى لا تلتبس الأمور على القارئ والدارس ليسهل عليه قراءتها وفهمها وإدراكها عند الدراسة والمطالعة (إبن جماعة، 2012: 132؛ الخطيب البغدادي، ج1، 1996: 428). لذا، يتوجّب على طالب العلم، كما يقول ابن جماعة: "إذا صحّحَ الكتاب والمقابلة على أصلهِ الصحيح أو على شيخ فينبغي له أن يشكُلَ المُشكِلَ، ويُعجِمَ المُستعجِمَ، ويَضبُطَ المُلتَبِسَ، ويتفقّدَ مواضعَ التّصحيف". حتى أنّ إبن جماعة يدقّق على توضيح الكتابة في الحواشي (الهوامش) بضرورة كتابة الأرقام أو الرموز للدلالة والتوضيح، فيقول: "إذا أراد تخريج شيء في الحاشية، علم له في موضعه بخطٍّ مُنعطفٍ قليلاً الى جهة التّخريج". وفي كتابة الحواشي، يرى ابن جماعة أهمية بكتابتها ويوصي المتعلّم بها. أي لا مانع بكتابة الملاحظات على هوامش الكتاب، ولا ينبغي أن يكتب إلا الفوائد المهمّة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل تنبيه على إشكال، أو رمز، أو خطأ أو نحو ذلك، فيقول إبن جماعة: "لا بأسَ بكتابةِ الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمّة على حواشي كتابٍ يملكُهُ ولا يكتب في آخره" (إبن جماعة، 2012: 132-133).

يُشير ابن جماعة أيضاً إلى أهميّة تمييز الأبواب والفصول ونحوها في الكتابة، وذلك بتقسيم الكتاب إلى أبواب وعناوين بارزة أو بلون آخر لتسهيل أمر القراءة والبحث والمراجعة عند المُتعلّم. فإبراز الأبواب والفصول، وتمييز الفقرات وفصلها عن بعضها، له قيمة في تيسير استخراج المقصود من المادة المكتوبة، فيقول ابن جماعة: "لا بأس بكتابةِ الأبوابِ والتراجمِ والفصولِ بالحُمرةِ، فإنّه أظهرُ في البيانِ، وفي فواصلِ الكلامِ" (المصدر السابق: 134-135).

آداب المتعلّم في سُكنى المدارس

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع التربوية المستحدثة لدى ابن جماعة كوننا لم نجد عند أقرانه ممن هم قبله أو بعده ما يشابه هذا الموضوع الذي عالجه من زاوية تربوية وأخلاقية. فمنذ تطوّر مؤسّسة المدرسة، اهتمّ أصحاب الأوقاف بتوفير السّكن ومرافق الطلبة داخل المدارس، لخدمة الطلاب والمعلّمين والقائمين على صيانة المدارس وخدمتها. وهكذا تمّ توفير شروط الراحة، والمصاريف والطعام للطلبة وغيرهم، مما جعلهم يتفرّغون للأهداف العلميّة والثقافيّة والتربويّة (Mahamid, 2013: 226-231). فإنّ ظاهرة سكن الطلاب والمتعلّمين في المدارس تدعو طلاب العلم الى ترك أسرهم وأهليهم ومساكنهم للإقامة في مساكن خُصّصت لهذه الغاية النبيلة، أي من أجل خدمة العلم والمتعلّمين وتسهيلا لهم (العُرضي، 1992: 164-165، 172؛ الطبّاخ، ج4، 1989: 334، 425-426؛ إبن شدّاد، ج1، 1991: 260-261.). فعلى سبيل المثال، شرط السلطان صلاح الدين الأيوبي في وقفيّته على الخانقاه الصلاحية في القدس، على الساكنين بها القيام بسلوكيّات ونشاطات حدّدها لهم الالتزام بها، ومن يخالف هذه الشروط يُطرد من المؤسّسة ويفقد حقّه بالسّكن بها إلا بعد الاعتذار (العسلي، ج1، 1983: 81-102؛ محاميد، 2009: 201-206). ولهذا، تعتبر سلوكيّات المتعلّم في مساكن الطلبة في المؤسّسات الدينية والثقافية من الظواهر الاجتماعية والحضارية في منظور ابن جماعة. وقد أدرك ابن جماعة أهميّة تبنّي قواعد السلوك السّويّ الذي يُفترض أن يُلزم المتعلّم نفسه تجاه مؤسّسته التعليمية، بما يعود بالنّفع عليه وعلى زملائه، ولذا أرشد المتعلّم الى مجموعة من الآداب والسلوكيّات، التي يجب الالتزام بها.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد التاسع – العدد الأول – البحث الثامن (ص: 234 - 255) 15 – نيسان – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

فتوخّياً للآداب الدينيّة والأخلاقية، ينبغي على المتعلّم اختيار المدرسة التي يسكنها وتلائمه وتوفّر له البيئة التي تضمن الراحة والأمان والاستقرار. وذلك لمساعدته على الإنقطاع للعلم والتفرّغ للتحصيل وإقامة الشعائر الدينية ومراعاة المناخ العلمي والسلوكي الجيّد. فيقول ابن جماعة أنّه من واجب المتعلّم: "أن ينتخب لنفسهِ من المدارِسِ بقدر الإمكان ما كان واقفُهُ أقرب إلى الورع وأبعد عن البِدَع". وبما أنّ الكثير من المُدرّسين يبيتون أيضاً في سكنى المدارس، في غُرف خاصّة بهم، فينبغي أن يكون المُدرّس مثالاً وقدوة في الآداب والسلوكيات. لذا فإنّ صفات المدرِّس تعتبر من الآداب المتبادلة بين المتعلّم ومعلّمه، فيحدّد ابن جماعة في كتابه فصلاً كاملاً في آداب العالم، أي المعلّم/ المدرّس، ويجب أن تتوفّر لديه الصّفات الحميدة يُحتذى بها: أن يكون من الفُضلاء وأن يكون مهذّباً متديّنًا متحلّياً بالأخلاق والآداب النبيلة، كاظماً لغيظه، حليماً وقوراً ورفيقاً بطلابه، صبوراً على اختلاف الطلبة، حريصاً على فائدتهم وانتفاعهم به. يقول ابن جماعة في هذا الشأن: "أن يكون المدرّس بها ذا رياسةٍ وفضلٍ، وديانةٍ وعقلٍ، ومهابةٍ وجلالة، وناموسٍ وعدالةٍ، ومحبةٍ في الفضلاء، وعطفٍ على الضعفاء، يُقرّبُ المحصِّلين، ويُرغِّب المُشتغلين، ويُبعدُ اللَّعَّابين، ويُنصفُ البحَّاثين، حريصاً على النفع، مواظباً على الإفادة" (إبن جماعة، 2012: 138).

لأهميّة سُكنى المدارس في العمليّة التربويّة للطالب المتعلّم، ينبغي عليه أن يتعرف على شروط المدرسة التي يسكنها، كونها مساكن للطلبة وأماكن للتعليم. هذا من أجل أن يقوم بحقوقها من خلال التعرّف على نظامها وقواعدها العلمية والخلقية والآداب والسلوكيات التي يتوجب أن يلزم نفسه بها مع مدرسيه وزملائه وجيرانه والمحافظة على مبناها وصيانته، وعلى سُمعة المدرسة، ليجني الفائدة المرجوّة من الإقامة بها. يقول ابن جماعة: "أن يتعرّف بشروطها ليقومَ بحقوقِها، ومهما أمكَنَهُ التَّنزّه عن معلومِ المدارس فهو أولى، لا سيّما في المدارِسِ التي ضُيِّقَ في شروطها وشُدِّدَ في وظائفها" (المصدر السابق، 139-140).

وضع واقفو المدارس قواعد معيّنة بما يتعلّق بسُكنى المدارس التي تحكم نظام المدرسة وتهتمّ بتنظيم السّكن، وحفظ ما فيها من متاع، وعدم السّماح بالدّخول إليها لمن لا يُقيمون فيها، أو غير المرغوب فيهم ممّن يتميّزون بسوء الخُلق. تتميّز الأجواء في المدرسة ما بين الحريّة والتضييق، حيث تمثل ذلك بالسّماح للطلبة المبيت خارج المدرسة أحياناً لزيارة أهله أو قضاء حاجته أو الترويح عن النفس، كما كانت الشروط في الخانقاه الصلاحيّة في القدس، على سبيل المثال (العسلي، ج1، 1983: 91-100؛ محاميد، 2009: 201-206). ويقول إبن جماعة في هذا السياق: "إذا حصرَ الواقفُ سُكنى المدارس على المرتّبين بها دون غيرِهم لم يسكُن فيها غيرُهم، فإن فَعَلَ كانَ عاصياً ظالماً بذلك" (إبن جماعة، 2012: 140).

هكذا، ينبغي على المتعلّم اغتنام أوقاته في المدرسة بأن يُصاحبَ من يُعينُهُ على تحقيق أهدافه ويشجّعهُ ويخففَ عنه الهُموم، ويقربّه من الله، ويرشده في ضبط أخلاقه وينشّطه على طلب العلم، لأنّ المدارس وأوقافها لم تقام للّهوِ واللعب وإفساد الأخلاق وإنّما لتعين الطالب على تحصيل العلم والتفرّغ له والتجرّد عن المشاغل. فواجب المتعلّم كما يقول ابن جماعة: "أن لا يشتغلَ فيها بالمُعاشرةِ والصُّحبةِ، أو يرضى مِن سَكَنِها بالسكةِ، والحَظْبَةِ، بل يُقبِلُ على شأنِهِ وتَحصيلِهِ وما بُنِيَت المدارِسُ له، ويقطعُ العِشرةَ فيها جُملةً؛ لأنّها تُفسِدُ الحالَ وتُضيِّعُ المال كما تقدّمَ، واللَّبيبُ المحصِّلُ يجعلُ المدرَسَةَ مَنزلاً يَقضي وَطَرَهُ منهُ ثم يرتحلُ عنه" (إبن جماعة، 2012: 141).

بما أنّ المتعلّمين يقضون غالبية وقتهم داخل المدرسة للتعلّم، وفي سكنى المدرسة لاغترابهم عن الأهل وسفرهم في طلب العلم، فعليه إظهار الآداب اللازمة لهذه الظروف، إن كانت دينيّة أو خُلُقية. فمن واجب المتعلّم إكرام أهل المدرسة التي يسكنها، وإظهار المودّة والاحترام، وأن يتحلّى باللطف بأقواله وأفعاله، وعدم إيذائهم والإحسان إليهم، والتحلّي بالصبر، وعدم الإزعاج والإساءة لزملائه. فيقول ابن جماعة في هذا السياق: "أن يُكرِمَ

أهلَ المدرسةِ التي يسكُنها؛ بإفشاءِ السَّلامِ، وإظهارِ المودَّةِ والاحترامِ، ويرعى لهم حَقَّ الجيرةِ والصُّحبةِ، والأُخوَّةِ في الدِّينِ والحرفةِ؛ لأنّهم أهلُ العلم وحَمَلتُهُ وطُلَّابُهُ" (المصدر السابق، 142).

هذه الأوضاع في سُكنى المدارس تتطلب الحاجة الى الاستقرار النفسي، لخلق الظروف المناسبة للدراسة. الأمر الذي يتطلّب من المتعلّم اختيار الجار الأصلح والمحلّ المناسب في سُكنى المدارس. فتأثير الجيران مهمّ على حياة الطالب سلباً أو إيجاباً، لذا، ينبغي على المتعلّم حسن اختيار جيرانه، ممّن عُرفوا بالصّلاح وحبّهم الإشتغال في العلم. وقد ذكر إبن قدامة المقدسي الصفات المشروطة التي يتوجّب على المرء أن يتوخّاها فيمن يريد صحبته، فيذكر آداب الصّحبة والأخوّة ومعاشرة الخلق وغيرها من الآداب وما فيها من الفضل (المقدسي، 1997: 114-123). كما يذكر إبن جماعة في ذلك قوله: "أن يختارَ بجوارِهِ – إن أمكَنَ – أصلَحَهم حالاً، وأكثرَهم اشتغالاً، وأجودَهم طَبعاً، وأصونَهم عِرضاً؛ ليكونَ مُعيناً لهُ على ما هو بصدَدِهِ" (إبن جماعة، 2012: 142).

وللحفاظ على آداب الجوار، يشير ابن جماعة الى أنواع الأذى التي قد يتعرّض لها بعض الجيران، مثل النظر الى بيت أحدهم من الأبواب وفتحاته وما شابه. لهذا، يدعو ابن جماعة المتعلّم الى الابتعاد عن التصرّفات التي تسبّب الإساءة للجيران، فيقول في ذلك مثلاً عن واجب المُتعلّم من الناحية الأدبيّة: "أن لا ينظُرَ في بيتِ أحَدٍ في مرورِهِ من شقوقِ البابِ ونحوِهِ، ولا يلتفِتَ إليهِ إذا كان مفتوحاً، وإن سلَّمَ، سلَّمَ وهُوَ مارٌّ مِن غيرِ التفاتٍ" (إبن جماعة، 2012: 145).

كما يتوجّب على المتعلّم أن يتجنب الجلوس في المداخل العامّة للمدرسة أو الطرقات، كي لا يسبّب الإزعاج للجيران والزملاء، لما يترتب عليه من مضايقات للمارّة. فيقول ابن جماعة في ذلك: "أن لا يتخذَ بابَ المدرسةِ مجلساً، بل لا يجلِسُ فيه اذا أمكنَ إلا لحاجةٍ، أو في نُذرةٍ لقبضٍ أو ضيقِ صدرٍ، فقد نُهيَ عن الجلوسِ على الطُّرُقاتِ، ... لا سيَّما إن كان ممن يُستحيى منه، ... وفي مظنِّهِ دخولِ نساءِ من يتعلقُ بالمدرسةِ ويشقُّ عليه ذلك ويُؤذيهِ، ولأنّ في ذلك بطالةً وتبذلاً" (إبن جماعة، 2012: 144).

هكذا، ومن الملاحظ أنّ إبن جماعة يتطرّق إلى دقائق الأمور في آداب المُتعلّم في مكان سُكناه أو الأماكن الأخرى داخل المدرسة. فأدب سُكنى بعض الأماكن من المدارس يتوجّب الحفاظ على النظافة العامّة والخاصّة. إضافة إلى الآداب الشخصيّة للمتعلّم مع نفسه ومع غيره، كما ينبغي عليه الحفاظ على النظافة العامة، إن كان ذلك في الأماكن العامّة في المدرسة، مثل المسجد أو قاعة الدرس، أو المكان الخاصّ في سكنه أو درسه. هذه الأماكن، عادة ما تكون مفروشة، الأمر الذي يتطلّب من المتعلّم الحفاظ على نظافتها وصيانتها وطهارتها، فيقول ابن جماعة: "إذا كان سَكَنُهُ في مسجِدِ المدرسةِ أو في مكانِ الإجتماعِ ومرورُهُ على حُصُرِهِ وفُرُشِهِ فليتحفَّظ – عند صعودِهِ إليهِ – من سقوطِ شيءٍ من نعليهِ، ولا يقابلُ بأسفلهما القِبلَةَ، ولا وجوهَ الناسِ، ولا ثيابهُ، بل يجعلُ أسفلَ إحديهما الى أسفلِ الأُخرى بعد نفضِهما، ولا يُلقيها الى الأرضِ بعُنفٍ، ولا يتركها في مظنةِ مجالِسِ الناسِ والواردينَ إليها غالباً كَطَرفِ الصُّفةِ، بل يتركها – إذا تركها – في أسفلِ الوسطِ ونحوِهِ، ولا يضعُها تحتَ الحُصُرِ في المسجِدِ بحيثُ تنكسِر" (المصدر نفسه، 143).

خُلاصة واستنتاجات

يمكن القول بأنّ ابن جماعة اهتم بشخصيّة المتعلّم (طالب العلم) من حيث الأخلاق التي ينبغي أن يتحلّى بها، اذ تعتبر الأخلاق عاملاً مساعداً على تحصيل العلم، كما تعتبر أيضاً درعاً واقياً يحمي المتعلّم من أن يرتكب المعاصي والرذائل. كما اهتمّ بالصحة الجسميّة والعقليّة للمتعلّم، بحيث يصبح قادراً على تحصيل العلم والاستمرار فيه دون مشكلات تؤثّر على مسيرة تحصيله ومستقبله العلميّ.

يتضح أيضاً اهتمام ابن جماعة بوضع العديد من الآداب والسلوكيّات التي ينبغي أن يلتزم بها المتعلّم في علاقته مع أستاذه، سواء كانت تلك العلاقة ضمن مجلس العلم أو خارجه أو في الحياة اليوميّة بصفة عامة. وهي آداب تعكس احترام العلم والعلماء من ناحية، وتوفّر الجوّ النفسي والعلمي الملائم الذي يتيح للطالب حسن الاستفادة من أستاذه من الناحية الأخرى. كما ويُلاحظ تشديد ابن جماعة على الآداب والسلوكيّات التي ينبغي أن يلتزم بها المتعلّم خلال دروسه ومجالس العلم والسلوكيّات التي ينبغي تبنّيها من أجل اغتنام وقته ومجهوده في سبيل تحصيل العلم. وقد انبثقت هذه القواعد السلوكيّة من منطلق الدين والأخلاق، والتي تعكس الظروف الثقافية والتعليميّة للمجتمع والأفراد.

كما ويتضح لنا كيف حرص ابن جماعة على أن يحدّد للمتعلّم واجباته نحو سُكنى المدارس؛ من حيث المحافظة على أماكن محدّدة كالمسجد وقاعة التعليم، وكذلك الحفاظ على نظام سكنها الداخلي وما ينبغي أن يتوافر فيه من هدوء وسكينة، وعدم إيذاء للزملاء أو الجيران القريبين لسُكنى الطلبة.

مما ذُكر أعلاه، يتضح أنّ العالِمَ والمفكّر ابن جماعة قد تطرّق إلى العديد من الأفكار والآراء والمبادئ التربوية التي تعمل بها التربية المعاصرة اليوم كمراعاته لمبدأ الفروق الفردية، واهتمامه بملاءمة التعليم بما يتناسب ومستوى المُتعلّم وكذلك إهتمامه بمبدأ الدافعيّة وإثارة دافعيّة المتعلّم. الأمر الذي يشير الى أن العمليّة التربوية والتعليميّة عامّة وطالب العلم خاصة حظي كلّ منهم بما يستحقّ من عناية واهتمام وذلك من خلال الجهد الفكري الذي قدّمه المفكر إبن جماعة لمعرفة وإدراك العلاقة بين طبيعة المتعلّم وعمليّة التعليم.

قائمة المصادر والمراجع

إبن أبي أُصَيْبِعة، أحمد بن القاسم (1965). **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**. بيروت: دار مكتبة الحياة.

إبن بطوطة، محمد بن إبراهيم. (1987). **رحلة إبن بطوطة**. (1). بيروت: دار إحياء العلوم.

إبن جُبير، محمد بن أحمد (1984). **رحلة إبن جُبير**. بيروت: دار بيروت.

إبن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم (2012). **تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم**. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

ابن جماعة، بدر الدّين محمد بن إبراهيم (1988). **تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام**. قطر: دار الثقافة.

إبن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (1992). **الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. (1-4). بيروت: دار الجيل.

إبن خلدون، عبد الرحمن (2004). **المقدّمة**. (2). دمشق: دار البلخي.

إبن كثير، إسماعيل بن عمر (1988). **البداية والنهاية**. (13، 14). بيروت: مكتبة المعارف، 1988.

إبن قاضي شُهبة، تقي الدين بن أحمد (1994، 1977). **تاريخ إبن قاضي شُهبة** (2، 3). دمشق: المعهد العلمي الفرنسي.

إبن شدّاد، عزّ الدين محمد بن علي (1991). **الأعلاق الخطيرة في ذِكر أمراء الشام والجزيرة**. (1). دمشق: وزارة الثّقافة.

ابن عبد البِرّ، يوسف بن عبد الله (1994). **جامع بيان العلم وفضله**. (1-2). الدّمام: دار إبن الجوزي.

إبن عبد البِرّ، يوسف بن عبد الله (1996). **صحيح جامع بيان العلم وأهله**. القاهرة: مكتبة إبن تيمية.

إبن طولون، شمس الدين محمد (1980). **القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة**. (1-2). دمشق: مجمع اللغة العربيّة.

إبن طولون، شمس الدين محمد (1998). **دَلالة الشّكل على كَمّيّة الأكل**. بيروت: دار إبن حزم.

أبو حامد الغزالي، محمد (2005). **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار إبن حزم.

أبو حامد الغزالي، محمد (2010). **أيّها الولد**. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

أمين، محمد محمد (1990). "الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين". في: **التربية العربيّة الإسلامية: المُؤسّسات والمُمارسات**. (3). عمّان: المجمع الملكي: 807- 866.

الحلوجي، عبد الستّار عبد الحقّ (1982). **لمحات من تاريخ الكُتب والمكتبات**. القاهرة: دار الثقافة.

حمادة، محمد ماهر (2000). **المكتبات في الإسلام**. بيروت، مؤسسة الرسالة.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (1996). **الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع**. (ج 1-2). بيروت: مؤسّسة الرسالة.

رزق، عاصم محمد (1997). **خانقاوات الصّوفية في مصر**. (1-2). القاهرة: مكتبة مدبولي.

رمضان، عبد العظيم (مُحرّر) (1992). **تاريخ المدارس في مصر الإسلامية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب.

الزّرنوجي، بُرهان الدين (1981). **تعليم المُتعلّم طريق التعلُّم**. بيروت: المكتب الإسلامي.

السّمعاني، عبد الكريم بن محمد (1993). **كتاب في أدب الإملاء والاستملاء**. جدّة: مطبعة المحمودية.

شمس الدين، عبد الأمير (1990). **الفكر التربوي عند إبن جماعة**. بيروت: الشركة العالميّة للكتاب.

الصّوفي، عبد اللطيف (1987). **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات**. دمشق: دار طلاس.

الطبّاخ، محمد راغب (1989). **إنباء العُلماء بتاريخ حلب الشّهباء**. (5). حلب: دار القلم.

العُرضي، أبو الوفاء محمد (1992). **معادن الذّهب في الأعيان المشرّفة بهم حلب**. عمّان، الجامعة الأردنية،.

عسيري، مرَيزن سعيد (1987). **الحياة العلميّة في العراق**. مكّة المكرّمة: مكتبة الطالب الجامعي.

العسلي، كامل جميل (1983). **وثائق مقدسيّة تاريخيّة**. (1). عمّان: مطبعة التوثيق.

العِشّ، يوسف (1991). **دُور الكُتب العربيّة العامّة وشبه العامّة لبلاد العراق والشّام ومصر في العصر الوسيط**. بيروت: دار الفكر المعاصر.

العَلْمَوي، عبد الباسط بن موسى (2004). **المعيد في أدب المفيد والمستفيد**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

محاميد، حاتم (2009). **دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط**. عمّان: دار ورد الأردنيّة.

المقدسي، أحمد بن محمد ابن قدامة (1997). **مُختصر** منهاج القاصدين. بيروت: دار إحياء العلوم.

النّشّار، السّيّد (1993). **تاريخ المكتبات في مصر: العصر المملوكي**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

النّعَيمي، عبد القادر بن محمد (1981، 1988). **الدارس في تاريخ المدارس**. (1، 2). بيروت: دار الكتاب الجديد.

اليونيني، موسى بن محمد (1998). **ذيل مرآة الزّمان**. بريل – لايدِن.

Berkey, Jonathan (1992). The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo. Princeton University Press.

Berkey, Jonathan (2009). “Mamluk religious policy”, Mamluk studies review vol. 13, 2: pp. 6-22.

Chamberlain, Michael (1994). Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus 1190- 1350. Cambridge University Press.

Eche, Youssef (1967). Les Biblioth`eques Arabes Publiques et Semi-Publiques en M´esopotamie, en Syrie et en E´gypte au Moyen ˆAge. Damas: IFEAD.

Erzini, Nadia & Vernoit, Stephen (2013). “The Professorial Chair (kursi ‘ilmi or kursi li-l-wa‘z wa-l-irshad) in Morocco”, Al-Qantara XXXIV 1: pp. 89-122.

Mahamid, Hatim (2009). “Mosques as Higher Educational Institutions in Mamluk Syria”. Journal of Islamic Studies (JIS), 20, Issue 2: pp. 188-212.

Mahamid, Hatim (2013). Waqf, Education and Politics in Late Medieval Syria. Germany, Lap Lambert Academic Publishing.

Mahamid, Hatim & Nissim, Chaim (2018). “Sufis and Coffee Consumption: Religio-Legal and Historical Aspects of a Controversy in the Late Mamluk and Early Ottoman Periods”. Journal of Sufi Studies. (JSS), 7: pp. 140–164.

Makdisi, George (1981). The Rise of Colleges. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Makdisi, George (1991). Religion, Law, and Learning in Classical Islam. Great Britain.

Nielsen, Jorgen S (1984). “Sultan al-Ẓāhir Baybars and the Appointment of Four Chief Qāḍīs, 663/1265”. Studia Islamica No. 60: pp. 167-176.

Rapoport, Yossef (2003). “Legal Diversity in the Age of Taqlid: The Four Chief Qadis Under the Mamluks”. Islamic Law and Society, 10 (2): pp. 210-228.